کتابخانهٔ
مجلس شورای
اسلامی

کتابخانهٔ مجلس شورای اسلامی

مؤسسهٔ ۱۳۰۲

اسم کتاب النظام و الاسلام

مؤلف شیخ طنطاوی جوهری

موضوع تالیف

شمارهٔ دفتر ۴۷۹۴

کتابخانه مجلس شورای اسلامی
مؤسسة ۱۳۰۲
اسم کتاب النظام والاسلام
مؤلف شیخ طنطاوی جوهری
موضوع تالیف
شمارهٔ دفتر ۴۷۹۴

کتابخانه مجلس شورای اسلامی
۱۱
۳۶۷

مجلس شورای ملی
کتابخانه

النظام والاسلام

تأليف

الشيخ طنطاوي جوهري

استاذ بمدرسة دار العلوم

الطبعة الثانية

طبع على نفقة ملتزمه

امين همنديه

(ثمن النسخة قروش صاغ)

مطبعة همنديه بالموسكى بمصر

﴿ مقدمة الطبعة الثانية لكتاب النظام والاسلام ﴾

الحمد لله والصلاة والسلام على انبيائه وبعد فلئن دل انبلاج الفجر على مقدم ذكاء ووعد وميض البرق بمدرار السماء وصدق الخريف وعده بوفاء النيل ومقدمتا المنطق بنتيجة الدليل ليدلن على استيقاظ الامة الاسلامية عموما والمصرية خصوصا من نومها القديم وسباتها العميق ظهور الرغبة في قراءة الكتب العلمية واقتنائها والاستظلال بافياء جناتها الناضرة الفيحاء والاكل من ثمارها الدانية للاذكياء ومن تلك الادلة اعادة طبع هذا الكتاب فقد نفدت طبعته الاولى منذ سنين وكثر الالحاح باعادة طبعه والطالبون لحوزه من انحاء الاقطار الاسلامية كالهند والقازان وبلاد جاوه والملايو وشمال افريقيا وبعض امم السودان فشرعنا في طبعه خدمة لمن تجمعنا واياهم الرابطة الجنسية والبشرية ولما كان كثير من اخواننا يطلبون منا مؤلفات حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ طنطاوي جوهري استاذ مدرسة دار العلوم عزمنا ان نوالي اعادة طبعها وابتدأنا بهذا الكتاب لانه اقدمها طبعا ومن احسنها وضعا عسى ان نقوم ببعض ما يجب للاخوان في سائر البلدان

امين هنديه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه اجمعين (أما بعد) فان بهجة العلماء ولذة الحكماء النظر في الكون وبهجته والأرض وما اقلت والسماء وما اظلت من النجوم السارية والكواكب الطالعات والحكم العجيبة واول داع الى هذه اللذة القرآن الكريم قال تعالى « ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء . الآية الى . لآيات لقوم يعقلون » وقوله « وفي الارض آيات للموقنين وفي انفسكم افلا تبصرون وفي السماء رزقكم وما توعدون » وقوله « ان في السموات والارض لآيات للمؤمنين وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون » واكثر آيات القرآن الكريم داعية لهذا النظر العظيم الذي حرمناه في هذا الزمان

نحن معاشر المسلمين حين ضعف امرنا ولم ندر ان ديننا هو الآمر به الداعي اليه مع مشاهدة اصغر مؤلفات الأمم الاجنبية مشحونة بعجائب الحكم الباهرة وآثار الربوبية الظاهرة مما يدعو الى طلب العلوم ونيل المعارف ولم يوقظ مؤلف هذا الكتب من سنة الغفلة ويشوقه الى تلك العلوم الا القرآن الكريم وما كنت اعلم وانا في الوحدة ان يشاركنا فيه ابناء الامم الغربية فوجدتهم قد سبقونا شوطاً بعيدا

وكثر مادعا القرآن الى الرقي في المعارف بالحث على طلب العلم ومن اعجب آياته في ذلك « الله الذي خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن يتنزل الامر بينهن لتعلموا ان الله على كل شيء قدير وان الله قد احاط بكل شيء علما » فتامل كيف جعل نتائج خلق السموات والارض وما بينهما ان تعلم علم الله بتفصيل ما ابدع في الكائنات وما ذرأ في الذرات من مباهج الحكم مما يدعو الى الشوق والوله والولوع والدأب والجد في حوز المعارف والعلوم

اية لذة في حياة العقلاء اذا لم يعرفوا الكون وبهجته « وما الحياة الدنيا الا لهو ولعب » ستفنى ويفنى اهلها وليس

لنا الا علمتنا وعملنا وهما الزاد الى المعاد اللهم الهمنا علما نافعا ومعرفة تامة وكل من قرا كتابنا هذا بشوق اليك وولوع بجنابك انك نعم المجيب

ولقد حدا بي شدة ولوعي وشوقي لمعرفة الكون ان جعلت اوقات الرياضة لصرف عنان الفكر للتامل في مصنوعات الله جل وعلا موثرا تلك اللذة على ما سواها بالطبع والغريزة فكنت اذا هبت النسمات في الخلوات او بين اغصان الاشجار او غردت الاطيار وسمعت خرير ماء الانهار تمثل لي من تلك الاصوات وتجلى من مباهج تلك الالوان بهجة العلم وحكمة المبدع باظهر مجلى وابدع معنى ومن هذا كانت هذه الخواطر المودعة في هذا الكتاب الذي سميته (النظام والاسلام) ورتبته على مقدمة وثلاثة اقسام (القسم الاول) في جمال الكون ونظامه وميزانه اذ يتجلى لقارئه كيف انتظم النبات ووزن بميزان حقيقي ويفهم السر المكنون المعبر عنه بالميزان في آيات كثيرة كقوله « ووضع الميزان » ونحوه وبهذا قرنت الاسلام بالنظام تذكيرا بانه هو الذي ايقظني الى النظر في هذه العلوم النظامية في الكون و (القسم الثاني) نموذج في كيفية فهم قصص

القرآن الشريف وما المقصود منها كسورة يوسف وسورة سليمان عليهما السلام مما يتساءل عنه الدارسون للعلوم المتشوقون للاطلاع وكيف تدعو تلك القصص الى المدنية والنظام كحكمة سليمان وآداب يوسف الخلقية ليزداد المؤمن يقينا ويوقن الشاكون من ابنائنا الشبان المسلمين (القسم الثالث) فيما يجب على الملوك والرؤساء والعلماء والحكام ودعاة الأمة والخطباء من الآداب العامة الكافلة لنظامها كما انتظم الكون اجمعه بالنواميس العالية والملائكة الصافين

مقدمة

(في العلم والعلماء والحكمة والحكماء ومنزلتهم من الامة وانهم منها كالراس من الجسد)

قضى مبدع هذا الكون ألا يترك عباده وشأنهم بل تراه كلما اشتدت الازمة عليهم وحاق بهم التشتت والتمزيق عطف عليهم ببره وواساهم باحسانه واردفهم بانبيائه المبشرين المنذرين سنة الله في الذين خلوا من قبل منذ آدم فشيث وادريس ونوح فابراهيم اصل شجرة العلم الثابت اصلها في الارض الصاعد فرعها الى السماء المثمرة في العالمين ثمر العرفان والهداية لا انقطاع لجناه ولا آخر لمداه

جاء بعده بنوه من ذرية اسرائيل يعقوب النبي ومضى أمر الاسباط حتى اذا جاء موسى وتتابع بعده فيهم انبياء مجددون مرشدون وانتهى دور الارتقاء بداود وسليمان وأخذ بنو اسرائيل في التفرق وانحطت قوى جسم الامة ارسل عيسى عليه وعليهم الصلاة والسلام ليجمع الكلمة وما مضت ستة قرون حتى اختلف الاحزاب من بينهم وتفرقت الفرق وكل

حزب بما لديهم فرحون فارسل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم على قدم ابراهيم ليجمع الكلمة ويؤلف الاحزاب المتشتتة والفرق المتعادية من الامم المختلفة وأمر بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي احسن فالحكمة للخاصة والموعظة الحسنة للعامة والمجادلة مع الفرق المخالفة التي لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء بل هم كالمتوسطين في المعرفة وأمر أن يقتدى بهدى الانبياء « فبهداهم اقتده » وقال لمن اتبعه « قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما اوتي موسى وعيسى وما اوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون » ثم اشار الى من خالف بقوله « فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم »

لم يكن المسلمون بعده عليه الصلاة والسلام بأقل تمزيقاً وتشتيتا ولا أوهن حولا وحيلة من أولئك الامم التي بينه وبين الخليل عليه السلام بل أخذوا أدوارهم « لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه » والناظر في هذا العالم يراه متشابهاً والدور متكرراً « ما ترى

في خلق الرحمن من تفاوت » واليه الرمز بحديث حجة الوداع « أيها الناس ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض » اشارة الى دور آخر استأنف من أشكال الفلك بمبعثه عليه الصلاة والسلام فيأخذ العالم بعده شكلا يختلف عما قبله كيفا وكما وأن وافقه نموذجاً ووضعاً وها هم المسلمون اتبعوا سنن من قبلهم وتفرقوا شيعا وذاق بعضهم بأس بعض وصار أحزاب المسلمين في أقطار الارض كاولئك الاحزاب الذين مضوا في الامم قبلنا فأرسل سيدنا محمد واجتذب قلوب كثير من أتباع الانبياء من اليهود والنصارى بسياسة إلهية ورفق ولطف بأمر ربه « لا نفرق بين أحد منهم » فأراهم انه متبع لانبيائه مصدق بما جاؤا وأنه أخوهم كما ترشد اليه قصة ابراهيم في سورة البقرة في الربع الثامن من ابتداء قوله « واذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن . الى . سيقول السفهاء من الناس » وأني لأوصي كل ذي لب من الاذكياء أن يقرؤا هذا الربع ويفهموه فهما جيداً وليعلموا ان هذا لم يكن القصد منه مجرد سرد حكاية خلت في القرون الاولى وانما جاءت بصائر لنا وحاشا ان تكون كذلك وقد قال في آخر تلك الآيات

« تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » فاذا كانت تلك الامم لها ما لها وعليها ما عليها فما لنا اذاً ولها فالمقصود من ذكرها كباقي قصص القرآن التنبيه والايقاظ من نوم الغفلة ورقدة الجهالة وان يهب في هذه الايام رجال راشدون مصلحون يقومون بالحق وبه يعدلون ويتأملون في المذاهب الاسلامية والاحزاب المختلفة والآراء المتشاكسة المتغالبة والفرق المتعددة ويقول أولئك المصلحون ان نبيكم واحد وربكم واحد وكتابكم مقروء محفوظ لا تغيير فيه ولا تبديل وهذه المذاهب لا نفرق بين أحد منها ونحن نقدس واضعيها ونحترم مؤسسيها لا فرق بين شيعي وزيدي وسني ولا بين شافعي وحنفي ومالكي « واختلاف الديار وبعد الاقطار لا يقتضي تمزيق الوجهة وتفريق الجامعة كما قال تعالى على لسان نبيه عليه الصلاة والسلام « قل بل ملة ابراهيم حنيفاً « وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم » فالقائمون بهذا الامر يقومون في الامة على قدم نبي هذه الامة ويوحدون وجهتها وان اختلف المذاهب الاسلامية كما جاء صلى الله عليه وسلم لجمع كلمة ابراهيم الخليل المتفرقة في الناس بتتابع الانبياء

وتداول السنين وكرور الاعوام فالحكيم المرشد في الامة الآن ليس له الا أن يقوم على ما أرشد اليه نبيه ويقتدي به في لم شعث الامة كما فعل هو عليه الصلاة والسلام في اتباع أولئك الانبياء بعد ابراهيم فمثل علمائنا كأنبيائهم ونبينا كابراهيم الخليل والحكيم المرشد لا بد ان يقتدي بهدى نبيه ويلاحظ الزمان والمكان والعلوم العصرية وتقدمها والامم وتمدينها ثم يحكم بما أراه الله واذاً لا بد لنا من الكلام على الحكماء والامم

الحكماء والامم

« ونقد أرسلنا موسى بآياتنا أن اخرج قومك من الظلمات الى النور وذكرهم بأيام الله ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور »

قضت حكمة مبدع هذا الكون ان لكل أمة يومين يوم نعمة ورخاء ويوم بؤس وشقاء وبهما التبشير تارة والانذار أخرى ليجزى الذين أساؤا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى

الانسان مخلوق من صلصال من حماء مسنون مركب من

طبائع مختلفة فتباينت أحواله وابتلى بالمتضادات من النقص والكمال والجهل والعلم والفقر والغنى « ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون »

للامة يومان يوم ترضع فيه ثدي النعيم وتسكر من خمرة العز ثم تأفل شمس يومها ويظلم أفقها ويفقد أهلها الاحساس فينامون في جهلهم وتشرق شمس معارفهم على غيرهم فيتمتعون بنعمة العلم والعقل وهؤلاء ليس لديهم الا بقية من العلماء كنجوم تلمع في دجى الليل لا يهتدي بها السارون ولا يدفأ بها المقرون

تشابه العالمان المحسوس والمعقول في نظر الحكماء فاذا أذن الله لليل الامة ان يعسعس ولصبحها ان يتنفس قام علماء نابغون وحكماء مدققون ينبهون الشعور الكامن ويحيون المجد الدائر والاثر البائد — هداة الامم رسل مؤيدون وخلفاء راشدون وعلماء مخلصون يتبعون آثار أولئك الانبياء يدعون الى الله على بصيرة ينجبون من أي طبقة من طبقات الامم في اي زمن من ازمانها مصداقاً لحديث معناه (امتي كالمطر لا يدرى اولها خير ام آخرها) وهؤلاء النابغون رحمة من الله بخلقه يأتون على فترة من الحكماء وجفوة من الهداة ومثلهم

في أمتنا هذه كمثل انبياء بني اسرائيل عند الحاجة اليهم مصداقاً لما ورد ان صح (علماء امتي كانبياء بني اسرائيل) ولكن ليسوا سواء . لا ينشل الامم من غمرتها ولا يوقظها من رقدتها الا اولئك الحكماء ولا يقيم المدنية ويحكمها الا اولئك السادة الكبراء

لو اردنا ان نضرب مثلا الامة بالانسان لقلنا الحكيم راسه والشجاع بأسه والمجتهد فكره والواعظ والصحافي لسانه والمحتسب سمعه وبصره والمقتصد اعتداله والعالم عظمه والعامي لحمه والصوفي دهنه والحاكم قلبه والتاجر عروقه والغني معدته والاخلاقي جماله والصانع يداه والسائح رجلاه وهؤلاء كلهم عيال للحكيم العليم . ينظر الحكماء بمنظار معظم من الفكر فيرتسم على شبكية بصائرهم ممالك الامم ومسالك العمران يبشرون وينذرون ويقولون ويفعلون

فقد الحكماء من الامم دليل على ارادة الله خرابها وبرهان على اقتراب زوالها من الوجود وعلامة على قيام قيامتها وطلوع شمسها من المغرب ودمارها

ما أنزل الله الوحي ولا أرسل الرسل الا لايقاظ النفوس من سنة الغفلة ونموها كما تنمو جميع المولدات من الحيوان

والنبات وافراد الانسان ولا بد لكل نام من حثالة تبقى وفضالة تعوق النمو وما مثل الدين الا كشجرة أصلها ثابت وفروعها في السماء والحكيم المرشد بستانيها يقلم اشجارها لتنبت نباتاً حسنا وتنمو نماء جميلا وله الرمز بحديث (ان الله يبعث على راس كل مائة سنة من يجدد لهذه الامة أمر دينها) — الانبياء في الامم كالعقول في الافراد وعلماؤها كالمخيلة والذاكرة وحكماؤها كالمفكرة فالويل للامة ان فقدت الحكماء والويل ثم الويل لها ان جهلت اقدارهم .

الحكماء ملهمون محدثون مصداقا لحديث « ان فيكم محدثين ومنهم عمر » والغوغاء من الناس بخلافهم مولعون « قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » « الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون »

الحكماء قبضة من نور الله ينشرها على الامم وقبسة من ذلك البهاء الاقدس والجلال الابهى تشرق على من يشاء من عباده حجة من الله على خلقه نوابا عن الانبياء داعين الى الله على بصيرة

الدنيا دار ملؤها الشرور والفساد ومآلها الفناء والبوار

ألفت من عناصر متنافرة وركبت من أصول متناقضة لذلك كان أهلها متشاكسين متباعدين متنافرين متباغضين ولولا الانبياء والملهمون والعلماء والسادة الحكماء المصلحون لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين . العلم جنة من الرحمن زاهية الافنان قطوفها دانية لا تسمع فيها لاغية مغارسها الانبياء بذورها استعداد الاذكياء جذورها الملكات الفاضلة سوقها الحكماء اغصانها العلماء اوراقها افراد الامم ازهارها العلوم ثمارها الاعمال غايتها السعادتان سعادة الدنيا بتناول ثمراتها وسعادة الآخرة بعصاراتها ثم يقضى الله ان يهيج شجرها فتراه مصفرا ثم يكون حطاماً تعلوه البذور من الحب والنوى مخازنها ادمغة الحفاظ ومخيلات العلماء ومزارعها عقول الحكماء والزارع هو الله فهناك تثبت نباتا حسنا مصداقا لحديث حجة الوداع (ليبلغ الشاهد منكم الغائب فرب مبلغ اوعى من سامع)

ما أشوق النفوس الانسانية الى حوز العلوم والمعارف وما أشد تطلعها الى ادراك غاياتها وما ألهجها بذكر ما عرفت وأكثر دعواها بما جهلت كأنه قد خط على ألواح القلوب (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيرا) ما اعناصت الحكمة

على سوى ذي لب وأحضرت عند نفس الحكيم وأزينت بأبهى ملبس وجمال « وما يذكر الا أولوا الالباب » الله اكبر قهر عظيم لنفوس هذا النوع وإلهام كانه القى في روع كل نسمة ان العلم هو الحياة فادعاه كل وان جهله ويا للعجب اعلى الابصار غشاوة ام في الاسماع وقر ام القلوب غلف ام ازيل الغطاء عنها ولكن جعل من بين ايديهم سد الشهوات ومن خلفهم سد سوء العادات ام هي ظلمات بعضها فوق بعض ام هو موج الاهواء من فوقه موج الاهوال من فوقه سحاب الظلم ظلمات بعضها فوق بعض احاطت بهذا النوع من كل جانب حتى اذا التفت الى فطرته التفاتة لم يكد يراها ولكن الانبياء المرسلين والحكماء المخلصين نور من الله ليكشفوا الظلمات ويرفعوا سد العادات « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور »

عجب عجاب المخلوقات على نهج واحد لا ترى فيه عوجاً ولا امتا فكان منه ان الشوق على مقدار الحاجة ولما كان العلم أس بناء المدنية انبعث شوق فى النفوس بمقدار ما قدر لهم من المدنية واعتلى ذلك فى انفس الحكماء اشد من شهوة المعدة للغذاء والعين للضياء والمحبوس للهواء والزرع للماء بل

عساهم يتركون الاهل والولد فرحين بما أوتوا من الحكمة والناس من ورائهم درجات بعضها فوق بعض . ولكل وجهة هو موليها .

العلماء اما طبيعيون منهم أطباء الانسان وبيطريو الحيوان وبيزريون يحرثون ويزرعون وآخرون ميكروبيون ينظرون فيما غاب عن الاعين من عالم لا نراه ليخففوا رزايا الامراض والطاعون واما رياضيون ومنهم قوم مهندسون وآخرون حاسبون واما شرعيون يبثون العقيدة الشرعية في القلوب ويعلمون العبادات واقام الصلاة وايتاء الزكاة والحكماء فوقهم مسيطرون وما هو الا جسم والحكيم طبيبه ينظر موضع الداء فيقدر الدواء وهؤلاء كلهم فروع شجرة ساقها الحكيم أو جداول هو نهرها أو بناء هو أسه أو أعضاء هو رأسها أو سيارات هو شمسها أو عيون هو ضياؤها ولن تغني الفروع بلا ساق والجداول بلا نهر والبناء بلا أس والاعضاء بلا رأس والسيارات بلا شمس والعيون بلا ضوء فاذا فقدت الحكيم المرشد فلتودع حياتها ولتزر رمسها وان جهلت قدره ابتلاها الله بالاحن والرزايا والمحن وسجل عليها الخزي جزاء بما كانوا يصنعون

﴿ العلم والحكماء ﴾

حفاظ الامم ملوك يسيطرون على أجسام العامة والخاصة وصحافيون ووعاظ يبعثون الشعور الكامن ويثيرون في نفوس أقوام عزائم وهما بما لهم من السيطرة على القلوب وبما أوتوا من العلم وأنبياء يسيطرون على أجسام الامم وعقولها ظواهرها وبواطنها خاصتها وعامتها فلهم السيف والقلم والديوان والعلم فاذا مضى الانبياء ورثهم أكابر العلماء وهم السادة الحكماء ولكن أني يستويان فترى سلطة الحكيم على أفئدة الخاصة من العلماء والحكام ليتجلى الفرق بين التابع والمتبوع ولتحفظ مراتب النبوة لأهلها وليؤتي كل ذي فضل فضله

الحكماء أكبر من ان يعرفهم العامة واجل من ان تتطاول اليهم اعناق الجهال . الجاهل ربما مدحهم في المجالس واطنب في وصفهم ولكن هيهات ان يكون عن علم بما لهم وانما هو تقليد للعارفين بأقدارهم تلقاها بسلامة الصدر وجعلها عدة للفخر وانما ظهر له ما يبدو من الفلك على جرم السمك او ما يظهر في الماء من مقدار الجوزاء

لو أردنا ان نضرب مثلاً للامة وحكيمها بما حولنا من

الكون لقلنا الحكيم شمس ينبعث منه شعاع العلم للهداية وحرارة النشاط للحركة فمن اشعة العلوم واضواء الهداية تستمد سيارات العلماء وتدور في افلاك العلوم الدائرة حول شمس الحكمة وتنصبغ الافراد بالوان العلوم المختلفة باختلاف الامزجة والامكنة والازمان وينبو آخرون عن قبول نورها فتبيض وجوه وتسود وجوه وبالحرارة المنبعثة منها تلين نفوس لطف مزاجها فيهون للاعمال هبوب النسيم تمددت بحرارة الغزالة ويتبخر ماء العلم الخالص من البحر الملح تلاطمت امواجه باجاج الخرافات وتستقيم شرع الجواري المنشئات في البحر كالاعلام حين تحطمت سفن النجاة وقد اثارتها اعاصير الجهل وعظم الكرب فاذا اثارت ابخرة العلم انعقد سحابا ماطرا يسقى اودية القلوب كل بقدره فاذا نزل عليها غيث العلوم ربت وانبتت من كل زوج بهيج . ومع ذلك فشمس الحكمة لاتزال تمد انهر العلماء وجداول الطلاب بحرارة التنشيط وتزج عليهم نسيم الروح والرغبة والاستطلاع الى المعالي فتجرف زبد الباطل من على وجه ماء الحكمة فتركمه جميعا فتلقيه الى من يحرقه وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً فاذا بعد مكان

الحكمة وقلت الحرارة واصبح ماء العلم ركاما من ثلج الكلام لا تحمل سفينة ولا تسقي واردا اولا تكون طهورا

تشابه العالم اجمع في نظر الحكماء وتساوي عند العلماء فيا للعجب كيف تشابه المعقول والمحسوس والامة والكون والحكيم والشمس فكان منها حرارة فحركة فنمو في الانسان والحيوان ونور فهداية فعمل والوان وبهجة واصباغ في جو السماء والارجاء والآفاق . وكان هو منبعث اشعة العلم ومناط النشاط والقدرة فمنها الاحساس وبه العلم وبها الحركة وبه النشاط واثارة القدرة على الاعمال وعالم بلا شمس ظلام وامة بلا حكيم جهل ودمار ، ان في ذلك لعبرة لاولي الابصار ،

لكل أمة عند فتح مدينة المدنية جيشان احدهما طيار والآخر سيار أو خفي وجلي أو القلم والسيف أو باطن وظاهر وبعبارة اصرح العلم والسلاح وقائد الاول في الامم الحكماء والثاني المدربون على الفنون الحربية من الامراء وما حاملو رايات العلم وقائدو العلماء باقل خطرا ولا اضعف بطشا من حاملي اعلام النصر امام جيوش الحرب

وما الجيوش الجرارة والمدافع الفتاكة ولا البنادق المصمية

ولا السيوف البتارة باسرع مرمى ولا اقرب فتكا ولا اقوى تأثيرا من رعود الوعيد وزواجر النصح وبوارق الهدى من رواة العلم وحاملي اعلامه . اجل في الأمم التي حولنا نظرك وسرحه فيها لمحة فهل رأيت الا جيوشا من الدعاة وطلائع من المرسلين داعية الى امهما دائبة على مصالحها طائرة في الآفاق من اوربا الى افريقية الى آسيا حتى الصين فأمريكا حتى ملؤا ما بين الخافقين ولن ترى جيش المحاربين الا في فترات من الزمان عند قصور العلم عن بلوغ الغاية ثم لا يكون الا جولات ونزلات وتضع الحرب اوزارها والقواد الكبار في كل أمة هم حكماؤها وجيوشهم لا تفتأ تجد ليلا ونهارا لا يفترون ها نحن نشاهد الامم الراقية حولنا وهي ارفع منا شأنا واقوى اثرا واشد بطشا وامنع حصونا واكثر عدة في البر والبحر وأعلى كعبا وامنع من عقاب لوح الجو تسارع الى ارسال اشعة العلم من سمائها ارسال الضياء في الهواء والبخار في الاجواء ولا تني في ذكره وتذهب رسلها بالآيات البينات في زعمها ولا تتكل على ما اوتيت من حصون محصنة ومدافع مهلكة وبنادق موبقة وجيوش منتظمة كأنه وقر في فطرها واستشعرت نفوسها ان

العلم جيش الله وان النصر بيد الله يؤتيه من يشاء وأن حزب الله هم الغالبون وكان في نظرهم أن حزبه هم الدعاة والمبشرون على حسب ما غلب على اعتقاد كل امة من الامم فى تعاليمها حقا كانت او باطلا

واذا كان هؤلاء اوتوا حزبين وحاربوا بجيشين وقد قدر لنا فقد الجند السيار وهو الجيوش افلا نجدّ في الطيار وهو العلم ونحن احوج اليه منهم ولا يكون حليف النصر الا بالحكيم المرشد . نرى جرائد الامم الراقيـة يرن صداها في الآفاق وتنادي باسم الوطنية فيخالها الجاهل انها أرض موات او حيوان ونبات او السماء المظلة وما يحيط بالسكان وانما هو راي من لم يذق من العلم الا لفظه الا انما الوطنية في الحقيقة عندهم ان يتبعوا ما خطه حكماؤهم وما تتغنى به شعراؤهم فالوطنيـة لفظ والحكيم معناه او هي كلام هو مغزاه والا فما معنى ذكر ارض موات او حيوان ونبات وانما هي حكم ومواعظ وخطط ينتهجها حكماؤهم فيتبعها خاصتهم وعامتهم ويسيرون في طريق واحد وينشدون بصوت واحد ثم يعبرون عن ذلك كله بالوطنية

رسل الله انما جاؤوا بالعلم والامم اجمعها تنتهجه وتدعي انها

على الحق وبقدر رقيها فيه تنال حظها من الغلبة ولعل له الرمز بقوله (كتب الله لاغلبن انا ورسلي ان الله قوي عزيز) ولعله من معجزات القرآن الرمزية فبعض الامم وان اخطأ في العقائد فما اخطأ في طريق المدنية والحياة الدنيا فنالوا حظهم من السعادة ان الله لا يظلم مثقال ذرة فمن اتقن علوم الحياة غلب فيها ولا يبالي واضع هـذا النظام ان يهلك الكسالى في اي واد من اودية الخسران « وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم »

القسم الاول

﴿ الشوق الى العلوم ﴾

ما اشوق الناشئة الاسلامية والشبيبة المصرية الى العلوم والمعارف وما اشوقني الى ايقافهم على جليات الامور حباً لترقيهم فلاسعين جهد الاستطاعة فيما يعلي شأنهم ويرفع اقدارهم ولا يكلف الله نفساً الا وسعها موقناً ان ذلك قربى الى الله وزلفى لديه بل اراه طبيعة لازمة للنفس لا تفارقها

لقيني فتى من الشبان المتعلمين فاخذ يحادثني في العلوم

فقال ايها الاستاذ طالما سمعتك تحث على العلوم وفهمها وتجمع بين المعقول والمنقول فتنظر في السماء ونجومها والارض واشجارها وازهارها ثم تكر كرة اخرى على الكتب فتطابق العلمين وتقول ارجعوا البصر كرة او كرتين ولكن لا تؤاخذني ياسيدي فاني اسمع جعجعة ولا ارى طحنا اني لم ارك مرة اخذت بيد فتى منا واريته كيف يطابق المعقول المنقول وكيف يجمع بين المستكشفات الحديثة والقرآن وياليت شعري هذا كلام الله والنبات والحيوان فعله فلم لا توقفونا على مطابقة القول للفعل بحاسة البصر لا بمجرد القول الذي نسمعه ولا نرى له اثراً في الخارج . فأخذت بيده وذهبنا الى حدائق ذات بهجة ونظرنا الازهار وبهجتها والاشجار وخضرتها ومحاسن الطبيعة ومناظرها البديعة ورأينا نباتاً جميلا بديعاً حسن الهندام يسمى بلسان العامة نخلاً افرنجيا من الفصيلة الزنبقية ازهاره مرتفعة قليلا على سوق جميلة لها ست اوراق كانها تاج على راس ملك بيضاوية الشكل مستطيلة جداً ناصعة البياض كانها استعارت لونها من القمر بينها فرج متساوية المقادير في داخلها ست انابيب دقيقة ظريفة بيض اسافلها حمر اعاليها كل انبوبة امام

ورقة كانها لباسها فقرأت اذ ذاك (وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم) وقوله (الذي احسن كل شيء خلقه) فهذه الزهور الجميلة جمعت احاسن النظام بحيث اتحدت ازهار هذه الشجرة بل هذا النوع بل الفصيلة كلها وتتكون اوراقها ستاً امامها ستة أعضاء من الذكور

فانظر كيف اتحد العدد في جميع هذه الازهار فهذا من حسن الفعل الجميل وقد طابقه القول

وياليت شعري كيف تساوت أوراقه البيضاء وما بينها من الخلاء وما هذه الهندسة المدهشة العجيبة وكيف كانت اطراف هذه الاوراق تصنع شكلا مسدسا منتظما بحيث يكون بين طرفي كل ورقتين متجاورتين ضلع من أضلاع ستة وكيف ثم كيف كان هذا الضلع وهي المسافة بين طرفي الورقتين تساوي نصف قطر الدائرة وهذه كما قرره علماء الهندسة خاصية في الشكل المسدس فيكون ضلعه مساويا لنصف قطر الدائرة المرسومة عليه ولا شكل سواه بهذه الخاصية — فها هنا جمع بين الهندسة العجيبة والحساب وحسن الشكل والنقش والتصوير — ومن الامر العجيب الجميل ان تنظر الهندسة

المبرهن عليها التي استنتجها عقل الانسان ظاهرة واضحة في الطبيعة

ولعمري ان كافة النبات وأزهاره وأوراقه سارية على هذا النظام

ومن الغريب ان بيوت النحل مسدسة الشكل كهذا الزهر وهكذا قطع الثلج تختلف أشكالها ولا يختلف تسديسها

ترى أوراق الشجرة الواحدة على هندسة واحدة وهكذا أزهارها تتساوى أوراقها عداداً وهندسة وشكلاً وحسناً فتأمل كيف ذكرت هذه في القرآن قال تعالى « الذي أحسن كل شيء خلقه » ولم يكتف بهذا الاجمال بل فصل فقال « وكل شيء عنده بمقدار » — فها أنت رأيت المقدار بعينك ثم تأملنا في وسط أعضاء الذكور في الزهرة فرأينا أنبوبة في وسط تلك الدائرة وهي عضو التأنيث وسط أعضاء التذكير تستقبل منها الطلع وهي مادة اللقاح التي خلقت في تلك الاعضاء الستة المحيطة بها فتأخذه وتنزله الى أسفل في جوفها مع الدقة الغريبة والحكمة العجيبة وكيف ثم كيف وضع محل الاناث في وسط الدائرة وكيف جعلت فيها منافذ كثيرة لا ترى الا بالمنظار

المعظم لتقبل مادة الطلع ويخلق فيها الحب وكيف جعل الذكور خلف الاناث يحافظون عليهن لانهن يحافظن على ما به بقاء النوع « صنع الله الذي أتقن كل شيء » فهذا هو الاتقان واي اتقان اعجب من هذا واي بهجة وحسن اجمل من هذه البهجة في الطبيعة

على نفسه فليبك من ضاع عمره

وليس له منها نصيب ولا سهم

كم من قارئ يقرأ فنون العلوم وهو عنها غافل رافل في حلل الشباب والبله وهو لا يدري ما حوله ولا يذوق للعلوم لذة « وكم من آية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون » فما احسن هذا الصنع وما اجمل هذا الاتقان « امن خلق السموات والارض وانزل من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم ان تنبتوا شجرها أاله مع الله بل هم قوم يعدلون » فقال الفتى هذه الآيات عامة فهل ذكرت هذه الذكور والاناث التي في النبات فقلت نعم « والارض مددناها والقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كل زوج بهيج » واشار الى ان الريح ملقحة بقوله « وارسلنا الرياح لواقح » وقال

في الازدواج « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » فالزوج سار في الانسان والحيوان والنبات كما رأيت بعينك وسمعت باذنك وهذا داخل في عموم قوله « وانبتنا فيها من كل شيء موزون » فها انت رأيت ان هذا النبات رتبت اوراقه وازهاره واشكاله وظلاله حتى انك ترى ظل الشجر يتحرك تبع الشمس وهي تجري بنظام وحساب متقن عجيب فهكذا ترى الظل تابعاً لها حتى جعل للظل عناية واهتمام في الفلك وناهيك المزاول الافقية والمنحرفة والراسية وكيف تعرف بها الساعات والدقائق والثواني بنظام عجيب فهذا كله وزن معنوي سرى في كل شيء فاما في النبات فظاهر مما رأيت في الازهار وهكذا ظلالها التابعة لسير الشمس منتظمة موزونة « وكل شيء عنده بمقدار » « والسماء رفعها ووضع الميزان » وقد قال العلماء لا يعرف معنى هذه الكلمة وهي الميزان الا من درس جميع العلوم واستنتج منها خلاصتها وطبقها على ما يشاهد من المحسوسات والا فهو من العامة المقلدين - ولعمري لا ينال النهاية في العلم الا الاقلون ومن قرأ العلم وهو لم يحصل في نفسه مجموعة منها كأنها شجرة لها اصل يتفرع منها فروع حتى يرى

انها شئ واحد فذلك الذي يعيش وهو لم يمتز عن العامة الا بالملابس والمفاخر ونفسه ليس لها حظ من هذا الا العناء في التحصيل ثم ضياع العمر في احوال الجسم لاغير « افرأيت ان متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما اغنى عنهم ما كانوا يمتعون » وشان كل امة قل منها المتفكرون فى الكون ان تغيب شمسها وتؤذن بالغروب فيأتيها التهديد بالخراب والعذاب والهلاك — « وما اهلكنا من قرية الا لها منذرون ذكرى وما كنا ظالمين » قال الفتى أصبت فيما قلت ولكن لي ملاحظتين . الاولى أراك ذكرت الميزان في النبات وجعلته في الاشكال والحساب والهندسة وغير ذلك وهذا لايعتبره العامة ميزاناً فلو قلنا للناس هذا المقياس المنتظم ميزان لم يفهموه وانما يفهمه الخاصة فهل لك ان تريني وزنا كما يزن الناس امتعتهم حتى ارى بعيني ان هذا النبات مركب من اجزاء متناسبه حتى تطمئن النفس تمام الاطمئنان . الثاني انك ذكرت ان الشمس تجري بحساب وتشير بذلك الى علم الفلك فهل لهذا ذكر فى القرآن وهل ذكر ان الكواكب تجري بنظام وحساب منتظم فاريته صفوفاً من الزجاج المختوم

المملوء مواد محللة تحليلا كيماوياً مختلفة المقادير . واقتصرنا على مواد الحنطة والاب (الحشيش) والبطاطس جعلناها نموذجاً ليفهم منها غيرها ويقاس عليها فأريته الزجاجات التي فيها مواد القمح وهو عبارة عن كيلو جرام منه حلل الى أجزاء كل جزء منها في زجاجة فكان النشا ٦٦٣ جراماً والماء المعتاد ١٣٤ جراماً والخشب المنسوج ٣٠ جراماً وملح النوشادر ٦٠ جراماً والفسفور المائي ٢٧ ر ٩ وكبريت العمود المائي ٤٩ ر ٣ جرام والبوتاسا الكاوية ٦ ر ٦ جرام والمانيزيا ٢ ر ٢ جراما والزيت الصافي ١٥ جراماً وهكذا أجزاء أخر كالصوديوم ومتى جمعت كلها بلغت ألف جرام فهذا حال القمح على سبيل الاجمال والعموم وأغلب هذه المواد في الاب والبطاطس بمقادير تخالف هذه فيدخل النشا في ألف جرام من الاب ٣٩٣ جراماً وفي البطاطس ٢٠٠ جرام وهكذا الماء المعتاد في الاب ١٤٤ جراما وفي البطاطس ٧٥٠ وهكذا بقية المقادير تختلف في هذه وغيرها حتى ان أكثرها يدخل في القطن وباختلاف المقادير صارت هذه المواد نفسها ملابس بعد ان كانت في القمح مطاعم وهي أيضاً تدخل في الفواكه الحلوة

والملحة والنباتات المرة وباختلاف المقادير ترى بعض المواد يختلف في الطعم واللون والشكل . فهذه هي خلاصة المستكشفات الحديثة في التحليل الكيماوي وهو بعينه وزن حسن يفهمه العامة والخاصة فتعجبت مرة وألف مرة من هذا الحساب والتقدير وهذا الوزن والميزان — فياليت شعري كيف صار هذا الثواب الذي البسه والنعل الذي انتعله والاكل والفواكه كلها من هذه المواد التي امامي وكان تنوعها باختلاف المقادير — ان هذا لهو العجب العجاب — ومن ذا الذي كان يظن ان هذا الثوب فيه المواد الماكولة من الحنطة والفاكهة (فتبارك الله احسن الخالقين) (وفي الارض آيات للموقنين) وبمثل هذا يكون العاقل موقناً. وهذا هو النظر الذي يرتاح به الضمير ويكون الانسان كامل النفس عالماً. ثم استرحت قليلا فرأيت الفتى يلتفت يميناً وشمالا فقلت على م تبحث فقال على الميزان الذي وزنت به هذه المقادير عند دخولها النبات اذ لابد ان يكون عند كل نبات ميزان يوزن به هذه المقادير الداخلة فيه والا فكيف وزن كل نبات في الارض بل النباتات الفطرية تجري على هذه القاعدة فقلت

هذا ميزان عرفناه بعقولنا اذ هو ميزان الاله واذا كان الله ليس كمثله شيء فميزانه ليس كمثله ميزان فالموزون محسوس مشاهد والوزن والميزان والوازن قد عرفت بالعقل فقال وكيف أعرف ما غاب عن حسي وأنت تعلم ما يقوله علماء هذا العصر انهم لا يصدقون الا الامور المحسوسة فقلت له هذا القول باطل وحق فقال وكيف ذلك فقلت اعلم ان اكثر العلوم لا بد ان يرجع فيها الى الحس والحواس خمس السمع والبصر والشم والذوق واللمس وهذه هي التي بها تدرك السماء ونجومها والارض واشجارها وأزهارها . ومنها أخذت جميع العلوم حتى ان علوم اللغات ترجع كلها الى محسوس بحاسة السمع وهي الاصوات وأنت تعلم ان علوم اللغة العربية اثنا عشر ترجع كلها الى الصوت وعلم الحيوان مما يشاهد بالبصر وهكذا النبات والمعادن ولولا مشاهدة الانسان للنجوم والشموس والاقمار ما أمكنه ان يعرف علم الفلك ولولا رؤية تميز الاشخاص من كل نوع ما أمكنه ان يعد الواحد والاثنين وعلم الحساب وهكذا المسافات بين البيوت والطرق بها عرفت الهندسة فهذه كلها محسوسة بالحواس الخمس وكل من كان أكثر تأملا في

المحسوسات كان أغزر علما وأوسع مادة وأجمل فهما . ثم ان النوع الانساني يرقي العلوم كلما ترقت مداركه ونمت ادراكاته فيجعل هذه المحسوسات مقدمات لبراهين بالعقل وتلك المعقولات تؤدي الى ما هو أعلى منها وهكذا الى ما لا يتناهى والا فهذه مسئلة مساحة المثلث وانها تساوي ضرب القاعدة في نصف الارتفاع لها مقدمات عقلية ربما تبلغ المائة وترجع في آخر الامر الى المحسوس فالمحسوس المقدمة الاولى والمعقول جميع ما بعده فاللوغاريتمات في الحساب والمساحات في الهندسة مثلاً قبلها آلاف من المقدمات ترجع الى العقل لا غير وتنتهي للمحسوسات وهكذا جميع العلوم وحينئذ قولهم انه لا يوثق الا بالمحسوس ان حمله القائل على اننا لا نصدق الا بالمحسوسات فقد رجع من أفق الانسانية الى الحيوان وهذه يأباها المتوحشون فضلاً عن المتمدينين وبها تضيع العلوم كلها وتصبح لا أثر لها في الكون فهذا وجه كون الكلام باطلاً وان أريد رجوعها في آخر الامر للمحسوسات فهو حق ويقصدون بذلك ان تكون البراهين قاطعة ومبادئ العلوم في شعور الناس قاطبة وانما يأخذون العلوم فيرقونها عند الحاجة

اليها كما ترقي بخار الماء المشاهد للناس والحيوان فصار يحمل الاثقال ويعمل أغلب الاعمال ولولا العقل ما أمكن ذلك وهذا اجمال ما أجبت به عن السؤال الاول

(٢) ثم قلت أما نظام الفلك وان الشمس والقمر والكواكب بحساب كما في النبات ومقاديره فذكرت مرات كثيرة في القرآن كقوله (الشمس والقمر بحسبان) (والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) فذكر التقدير وهو معلوم في الفلك « والقمر قدرناه منازل » « فالق الاصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم » وأشار الى ما هو أدق فقال « وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الارض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا في كتاب مبين » « ان الله سريع الحساب » « وهو أسرع الحاسبين » وقوله « وكل شيء عنده بمقدار » يدخل فيها علم الكيمياء والطبيعة والفلك فهذه كلها محدودة كمقادير الاوكسيجين والايدروجين في الماء ومن اطلع على هذا العلم عجب غاية العجب مما يرى من عجائبه الغريبة وكيف طابق المعقول المنقول فقال الفتى سررت من هذا المجلس وأرجو ان

تفيدني كيف أستنتج استنتاجك العمومي من نظرك في النبات فأجلته الى الغد

ذكرنا فيما تقدم كيف جعل النظام في الكواكب والنبات والحيوان والانسان وكيف تطابق الوضع الطبيعي مع القول المنزل في الكتب وها نحن الان نستنتج نظريتين لازمتين احداهما المعبر عنها بالقضاء والقدر والاخرى بقاء النفوس بعد الموت ولنقصر بحثنا الآن على النظرة الاولى فنقول

﴿ القضاء والقدر ﴾

جرت عادة الاناس ان لا يعرفوا أمراً غائباً الا بالقياس على ما يجدون من نفوسهم وما يعرفون من مشاهداتهم وهاهي الكواكب حكموا على جميعها بالاستدارة بمشاهدة بعض كواكب المجموعة الشمسية وعلى الكرة الارضية بالدوران قياساً على الزيت الدائر فوق الكؤل وهو من احدى الادلة التي ذكروها وهكذا قضايا كثيرة رجعوا فيها الى القياس كالحكم على كل نبات بالنمو لمشاهدة بعضه وعلى كل أم بالرحمة لمشاهدة بعض الامهات وهكذا الى ما لا يتناهى - هذه موازين بعضها ناقص والبعض تام فقال الفتى ما مثالهما .

فقلت تجد الطفل يحكم بان كل طفل له أبوان كأبويه واخوة ومنزل وخدم وحشم كما شاهد في منزل أبويه وحكم الأبوين ميزان تام لا عوج فيه لانه حكم بوجود المعلول على وجود العلة وبالملزوم على اللازم وهذه قضية صادقة اذ الحكم بالملزوم على وجود اللازم حق أما حكمه بالاخوة والخدم والحشم ومنزل كمنزل أبويه من جميع الوجوه فهو مشكوك فيه لانه استدل بأحد اللازمين على الآخر فاذا كبر وميز عرف فساد الحكم الثاني وصدق الحكم الاول ثم يترقى الى ما هو أرقى من ذلك في الحكم فيرى الحر والبرد والمطر والنهار والليل في بلدته فيقول كل بلدة في الدنيا على هذا النسق فما من قرية الا وفيها مطر ورعد وبرق وليل ونهار في الوقت الذي تكون فيه هذه عندنا وهذا الفكر قد يعيش الجاهل ويموت عليه وقد يشاهد خلاف بعضها بالاسفار فيحكم بنقيضه والبعض يقرأ علوم الرياضة والفلك والجغرافية فيحكم بفساده واذا عرفنا هذه المقدمة فنقول

يعلم كل انسان من نفسه أو غيره انه لا يعمل عملا ما الا بعد ان يتفكر فيه أولا ويقضي به في عقله ويحكم به في فكره ثم يبرزه على صفحات الوجود مقدراً بقدر على

حسب ما سبق في فكره وما قضاه في عقله وها هم المهندسون ينظرون أولا في نفوسهم وما عرفوه من مسائل الهندسة اذا أرادوا بناء قنطرة مثلاً حتى اذا أحكموه في نفوسهم ودبروه في عقولهم أبرزوه على الورق بطريق الرسم ثم بنوا على ما قضوه وحكموا به بقدر معلوم لهم وهذه القضية لا تختلف فيها العلماء ولا العامة فها هو كل انسان يشاهد من نفسه تلك القضية فيدبر ما يفعله بالنهار في أوله وهذه الحكومات تقدر ميزانيتها وترتب أعمالها وهكذا رؤساء الدواوين والمدارس يضعون نموذجاً للدروس وأوقات الفراغ لعلمهم انهم ان لم يفعلوا ذلك ضل سعيهم ولقد علموا ان من خالف هذه الخطة ضاعت أعماله سدى وها نحن نرى الغربيين بنوا جميع أعمالهم على التدبير قبل الشروع والترتيب فنجحوا بخلاف الشرقيين فهم يتركون الاعمال فوضى فضلوا وهكذا اشتهر أولئك بالنظر في العواقب وهؤلاء بقصور النظر وما ذلك الا عبارة عن التدبير والنظر في العمل قبل الشروع وعدمه - وبالجملة فهاها قضيتان واضحتان الشرقي لا ينظم أعماله والغربي ينظم - الغربي ينظر في العواقب والشرقي لا ينظر فيها

وينتج معهما قضية واحدة - الغربي أرقى من الشرقي بل اذا حققنا النظر وجدنا انه لا يمكن حيواناً ولا انساناً ان يعمل عملاً الا بعد تخيله أولا وعلمه ولولا الحواس الخمس والعقول ما علمت الدواب ولا الانسان شيئاً غاية الامر ان البعض نظره قصير والبعض نظره طويل وهم درجات بعضها فوق بعض وكلما كان العمل أدوم وأحكم وأعظم دل على سعة في القدرة - وبالجملة فالاحكام في العمل دال على وجود حكمة تقدمته . لننظر نظرة في الكون أي عمل أدوم وأتقن وأحكم مما شاهدناه من نظام النبات مثلاً ودخول المواد بمقادير معينة محكمة حتى اختلفت الفصائل والنباتات والاشجار والفروع والاوراق والازهار والاثمار والحبوب والروائح والطعوم والملابس والالوان والاشكال والمنافع والمآكل والملابس والادوية والفواكه والزيوت ومع ذلك نجد المواد الكيماوية واحدة دخلت بحساب معين في كل نوع وكل نبات فبروز تلك الاعاجيب ناتج من اختلاف المقادير ودخولها بموازين محددة معينة كما شاهدناه بأعيننا لا بمجرد الحكم على الغائب بل أدلة محسوسة مشاهدة بالبصر بل يمكن لمسها باليد - ومن العجيب

انك لا تجد أحداً من الناس يقول لم كان هذا النبات حلواً وهذا مراً وهذا شجراً وهذا نباتا ولم كان بعضه فاكهة وبعضه حباً والآخر أباً بل كلهم متفقون على حب هذا الخلاف مجمعون على انهم لا يسرون في الحياة الا بهذه الانواع ويقولون لولا تجدد الاطعمة واختلاف الاشكال والالوان والطعوم لكانت حياتنا ناراً حامية وجهنم باقية بل الحيوان يعلم هذه القضية لما نشاهد انه يأكل الحشائش حتى اذا سئم أكل الحمض كما يفعل الانسان من أكل الاحماض في الطعام مثل التوابل (السلطات المعروفة) هذا من الحيوان برهان على استحسان هذا الخلاف فضلاً عن الانسان

اذا كان هذا حال هذه النظامات النباتية والحيوانية وحوزها غاية الاستحسان عند الحيوان فضلا عن الانسان فيستحيل ان توجد الا اذا كانت معلومة بالترتيب أولا وهو المعبر عنه بالقضاء ثم الجري على مقتضى ذلك التدبير وهو المعبر عنه بالقدر ولو لم يكن هناك قضاء أولا وتدبير وترتيب ما أمكن ان يجري هذا النظام ولكان مختلا كما عليه الامم المنحطة مع ان لهم بعض التدبير ولو لم يكن تقدير بأن لم توضع تلك الاشياء على ماقضى

أولا بقدر لم يتم هذا النظام كما يختل نظام المدرسة بترك الجري على نموذجها الخاص بها ونظام الامة بترك ما قرر في ميزانيتها وهكذا الى ما لا يتناهى مما قررناه أولا — فقال الفتى هذا أمر ظاهر من هذا التقدير وها أنا فهمته ولكن لماذا أرى كثيراً من الناس لا يفهمونه . فقلت هذا انما يعرف بأحد أمرين اما التقليد أو البرهان وأكثر الناس مقلدون . أما البرهان فصعب ولا يحتاج له الا المتعلمون وهو عسر واذا سألتهم عن مقدماته وهو ما يشاهدونه في نفوسهم واخوانهم والحيوان أقروا وقالوا هذا أمر معلوم فاذا استنتجت هذه النتيجة لم يمكنهم تصديقها لعسرها عليهم اذ لا يصلون اليها الا بمشقة وتعب فيتركونها ويقلدون البسطاء أمثالهم فلا يعلمون لحياتهم غاية هذا غاية ما تقول . فقال الفتى كيف ترى احتجاج الناس بالقضاء والقدر وهل تعرض له القرآن . فقلت هذا حق يراد به باطل وعلم يراد به جهل وصدق يراد به كذب وسعادة يراد بها شقاء وصلاح يراد به فساد ولا يحتج به الا الخاملون الضعفاء من كل أمة انحط مجدها ودك شامخ سعدها والقرآن أول رادع لهؤلاء وموبخ لهم (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا

من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء) فردّ عليهم بقوله (كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل الا البلاغ المبين) تهديد لهم واكتفاء بتبليغ الرسل (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين) صرح هنا بان كثيراً من الامم المنحطة عقلاً تنام عن الترقي في المدارك والشعور والوجدان وتكسل عن الاعمال وتحتج بمشيئة الله فأوعدهم بالعذاب على تكذيبهم وأدخلهم فيمن كان مثلهم من الامم المنحطة المدارك المتواكلة الذين لم يعرفوا سنن الكون ولا ارتقاءه ثم أراهم انهم جهلاء بقوله (قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا) وهذا القرآن أول ناقم على من جعل عقيدة القضاء والقدر مبعدة عن الترقي

ألا فليخسأ الذين يظنون من المسلمين أن دينهم يأمرهم بالكسل والتقاعد وها هو ينادي على رؤوس الاشهاد بانه بريء من هذا الكسل مبعد عن هذا الجهل حتى قال (فلله الحجة

البالغة) وقال (قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن) ومن قرأ العلوم كما وصفت وفهم ما ذكر عرف ما يدعو اليه القرآن

نعم هذه من القرآن معجزة اذ كيف يقول (سيقول الذين أشركوا) ولقد قالها الذين أشركوا للنبي صلى الله عليه وسلم وهاهم كثير من المسلمين يقولون كذلك فهم كالجاهلية من العرب والامم المنحطة المدارك وها هو القرآن يهددهم بذهاب مدنيتهم كما ذهبت مدنية من قبلهم (كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا) وياليت شعري كيف يكون القرآن بهذه المثابة وبعض المسلمين يقولون كما قال الكفار فيما ذكره التنزيل (واذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ان أنتم الا في ضلال مبين) الآية فأجابهم بالتهديد بالصيحة التي تأخذهم وهم يختصمون ويتجادلون بالباطل فيما لا يفيد « ما ينظرون الا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون » وهذا كما روي انه صلى الله عليه وسلم دخل مرة على عليّ وفاطمة رضي الله عنهما فقال هل أنتما تقومان الليل فقال سيدنا علي ان أرواحنا بيد

الله ان شاء أيقظها وان شاء أمسكها فضرب صلى الله عليه وسلم بيده على فخذه وقال « وكان الانسان أكثر شيء جدلا » يشير الى ان هذا جدال لا فائدة فيه واحتجاج ضعيف واذا كان ذاك القرآن وهذا الحديث وتلك أعمال النبي صلى الله عليه وسلم الذي غزا ودبر الحروب وبعث السرايا وأنشأ أمة بحيث لم يكن يفتر عن العمل لحظة وكان يقسم أوقاته ويعمل أعمال آلاف من الرجال في منزله وخارجه فكيف بعد هذا يحتج المسلم الجاهل بالقضاء والقدر أتقليدا للعصاة من ملوك الاسلام السالفين في الاحتجاج بهذا القول حتى أصبح الافرنج يجعلون الاسلام منافياً للمدنية بسبب هذه العقيدة مع انها في كل دين فأي فرية أعظم من هذه وأي سبة أشنع منها وما ألصقها بالاسلام الا جاهلوه ولقد بينا وأوضحنا في هذا المقام فليخسأ المرجفون وليسكت الذين لا يعلمون الا فليصمت الجاهل وليتفطن العالم وفيما ذكرنا عبرة للنبهاء وضحكة المغفلين - فقال الفتى أرجو افاضة القول في النظرية الثانية وهي بقاء النفوس بعد الموت فأجلتها الى الغد

﴿ النظرية الثانية ﴾

حياة النفوس بعد الموت

لو صفا لك الجو ساعة وخلت نفسك من الاشغال والآلام والاكدار لرايت هذا الخاطر ماراً اسرع من البرق الخاطف فتقول ايحظى هذا العالم بالوجود وأنا افنى والوجود الذ شيء بل هو المحبوب الاعظم للنفوس والناس جميعاً يسعون لكماله وحسنه وارتقائه : اما اصله فليس بايديهم وانما هو من فاعل آخر

يختلف الناس حينئذ في آرائهم فمنهم المقلدون والمفكرون فاما المقلدون من جميع الملل وهم السواد الاعظم فهم يصدقون بما سمعوا ممن يثقون به من اهل دياناتهم . واما المفكرون فمنهم من ضل قياسه وطغى في وجدانه وحاد عن سبيل القياس ونظر في النبات فقال هذا النبات يحصد ويدرس وتذروه الرياح ويطير في الهواء وها انا مثله لابد ان امحى من الوجود واتلاشى كما تلاشى وهذا كما حكم الطفل بان للاطفال حماراً كحمارهم ومنزلا كمنزلهم وعربة كعربتهم فاذا ترقى وقرأ العلوم نظر نظرة ارقى فقال

ليس هذا الحكم صوابا وانما هو خطأ جاء من فساد القياس . ارى ان الشجر له مقدمة وهي الساق والفروع والازهار وهكذا ونتيجة وهي الاثمار والحبوب واذا ذهبت الاشجار بقيت الاثمار وما هي الا كالاجساد وارواحها والزيتون وزيته فها هنا امران هما الثمرات وهي الحبوب والفواكه وارواحنا

ارى الثمار والحبوب والفواكه والزيتون تربي في نباتها بالتدريج وتنمو شيأ فشيأ وتكون احوالها على حسب الاغذية التي ترد على النبات وهذه قضية اتحدت فيها جميع النباتات فاذا كبر النبات او يبست اوراق الشجر وادرك الثمر اقتطفه الانسان او اكله الحيوان

ارى المقصود من النبات والشجر يترقى الى عالم ارقى من عالمه وهو الحيوان وما درجاته الاعلى حسب ما امتص من الاغذية فاعلاه للمتمدينين كالحنطة وآخره الاوساط كحبوب الذرة المعروفة وادناه للمتوحشين كانواع اخرى من الدخن وغيره ومن مشترك بين الحيوان والانسان كالشعير والفول ومنه ما اختص بالحيوان كالحشائش التي لم تترق الى درجة الاشجار

والنباتات العليا التي صلحت للانسان والحيوان باوراقها وسوقها وحبوبها

واذا وضع هذا النبات للترقي لعالم ارقى منه وكان ما ارتقى منه للانسان وما انحط للحيوان وهكذا نرى جميع هذا العالم يطلب الارقى في الحياة بل هذا هو وضع الكون كله فلماذا يحرم هذا اشرف نوع وهو الانسان . وهل ترقى نوعه كاف. كلا وليس للانسان من العالم الا نفسه فاذا ترقى نوعه وفني هو فما فائدته وما لذته

ايترقى الفرد من النبات ولا يترقى نظيره من الانسان ان هذا لما يناقض القياس فاذا قسنا ارواحنا على اوراق الشجر وازهارها واثمارها فهو الخطأ وانما آراؤنا وافكارنا واخلاقنا وعلومنا تقاس على الثمار والحبوب اذ هذه ثمرات اجسامنا وتلك ثمرات الاشجار والنبات فقياس ارواحنا على تلك الاوراق خطأ نشأ من نظر سطحي نظرة الجاهلية الاولى . وقالوا ان هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم ، لان نظرهم سطحي وقياسهم مدخول فيه وهذا نظر العامة من كل امة وان احكموا الرياضيات وقرؤا الطبيعيات

اذ هم في هذا الفن جهلاء كالجاهلية الاولى قبل النبوة في جزيرة العرب وترى كثيراً من اطفال العلم يفتخرون بانهم على هذا الرأي كأولئك الجاهلين الذين لا يعلمون شيئاً

ليس التبحر في علم من العلوم دليلا على معرفة باقيها - أيسأل المهندس عن النحو أو الطبيب عن اللوغاريتمات أو البناء على التجارة . . كلا

ما ضل أغلب الناس الا بالأخذ بقول العلماء في غير فنونهم وهذه هي الطامة الكبرى على شبان الشرق - ترى أحدهم يأخذ بقول مدرس اللغة في فن الالهيات وفاته ان اللغة غير الالهيات مع انه لو سئل في الحساب لقال لا أعلم والسائل كذلك ولكنه ليس عنده قوة الحكم والتفرقة فمثله كمثل الجاهلية في الامم يصدقون قول العرافين في كل شيء قياساً على ما اتفق صدقهم فيه مصادفة « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا » فقد ظهر الفساد من عامتنا وخاصتنا حتى صدقوا الكذابين وضعفاء العقول والدجالين وعلماء الفنون في غير ما يعرفون

ولعمري أن من ولد بين أبوين يصدقان العراف

والدجال في اخراج الذهب من الزئبق والكبريت لما شاهدوا من أعجوبة اخترعها أو أكذبه لفقها الجديربان يصدق أكاذيب مدرس اللغة في الالهيات والحسابي والفلكي في الطبيعيات والطبيعي في المساعات تلك هي الضلالات

فقال الفتى اراك قست ارواحنا وعقولنا وآراءنا على الثمار والحبوب فارجو ايضاح هذا فقلت

نرى الطفل ينمو جسمه بين ابويه على حسب ما قدر له من الاغذية والادوية والمآكل وما يحيط به من الجو وما أثر فيه من مزاج الوالدين. فقال نعم. فقلت حين ينمو جسمه ترى غريزته الفطرية تترقى شيأ فشيأ بما يرى من احوال الوالدين والاهل والجيران وما يصادف من الاخوان والاساتذة والمعلمين وما أتيح له من غنى وفقر وسعادة وشقاء ومزاج وأغذية وأحوال مختلفة كل هذه ياسيدي تؤثر على آرائه وأخلاقه وعلومه وآدابه

فترى الجسم ينمو بذاك والروح بهذا فالجسم والروح فرسا رهان يتسابقان لكن الاول غشاء للثاني كالكاس والتويج اللذين يغشيان الثمر

فاذا بلغ الكتاب أجله ذبل الجسم واضمحل وانتزع

منه الروح كما يبقى الحب بعد ذهاب الشجر والزهر عند الاستغناء عنهما وتمام وظيفتهما والاستقلال بالبقاء والاستعداد لعالم أرقى

هكذا النفوس تستعد لعالم أرقى وتكون فيه على حسب ما سبق لها من جهل أو علم أو غباوة أو ذكاء أو أخلاق وآراء وأعمال وسعادة وشقاء كما ترى النبات بعد الحصاد بعضه يأكله الطبقة العليا من الانسان وأخر للوسطى وغيره للدنيا وسواه للحيوان وهي درجات بعضها فوق بعض فهكذا فلتكن نفوسنا بعد ذهاب الجسم فتمثال كل نفس ما لها من خير او شر وتصور بصورة لا نعلمها وتختلف احوالها باختلاف علومها واعمالها التي احاطت بها في الدنيا كما هو شان الحب بعد ذهاب الزهر والشجر ويكون السعداء مع العالم الاشرف كالحبوب والاثمار مع الانسان والاشقياء كالحشائش مع الحيوان تدوسها باقدامها

وهذه مشاهدات نراها كل يوم تذكرة وتبصرة لنعلم ان نمو الاشخاص في الحياتين كارتقاء الانواع في هذه الحياة واذا كان النوع الواحد يترقى كما هو الرأي السائد في الامم المتمدينة فليكن الفرد من النوع يترقى الى ما لا يتناهى كذلك

هذا هو الذي به تشهد الفطر وينادي به الوجدان -

واذا كان نظام النبات مقبولا عند النفوس وهو جار على نواميس في رقيه ونظام معبر عنهما بالقضاء والقدر وقدمنا ان الحيوان والانسان فرحون بهذا الاختلاف لا يشكون في قبول اختلاف الثمرات باختلاف الاغذية كما اوضحت باجلى بيان آنفاً فما لهم يتساءلون عن اختلاف اطوار الناس واحوالهم بعد الموت المبنى على ما نشؤا عليه في الدنيا وهو لم يفارق حكم النبات في شيء بل النظام واحد والقانون لم يتغير والامر ليس فيه اختلاف

فمن اعوجت بصيرته او كسل عن العمل او عاشر الجهلاء او كره العلماء او ترك النظر او عاش ابله او اقتصر على المال او الجاه او لم ينظر في شؤون امته عند القدرة عليها فلا يلومن القضاء والقدر بل يلوم نفسه اذ هو كنبات تغذي بأغذية رديئة فاختل مزاجه واذا لم يجد في نفسه حرجا في نتائج النبات فلم يجد الحرج في نفسه والاعتراض على مآله فالمنكر للتدبير والعلم والترتيب يحب تلاشي الوجود المبني عليه ، ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون ،

فقال الفتى اراك تجعل مقارنة بين الثمار والحبوب وارواحنا

فهل جاء في الكتاب ما يشير الى هذا فقلت كثير بل هذه هي طريقة كتابنا المقدس (١) قرن القيامة بحمل الاناث والثمر في الاكمام اشارة الى ما قلنا [اليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من اكمامها وما تحمل من انثى ولا تضع الا بعلمه] (٢) [استدل بالترقي في الوجود والنشأة على نمو الارواح بعد الموت وتشابه النشأتين كما قلنا (يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الارحام ما نشاء الى اجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا اشدكم الى ان قال وان الساعة آتية لاريب فيها) فجعل عالم الارواح كعالم الاجسام وانه يصور الروح كيفما يريد بعد هذا العالم

اثبت ان لكل شيء خلاصة وثمرة والا لكان وجوده عبثا « افرايتم ما تمنون ءانتم تخلقونه ام نحن الخالقون نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على ان نبدل امثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ولقد علمتم النشاة الاولى فلولا تذكرون افرايتم ما تحرثون ءانتم تزرعونه ام نحن الزارعون لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون انا لمغرمون بل نحن محرومون افرايتم الماء الذي

تشربون ءانتم انزلتموه من المزن ام نحن المنزلون لو نشاء جعلناه اجاجا فلولا تشكرون افرايتم النار التي تورون ءانتم انشأتم شجرتها ام نحن المنشؤن » الآية

فالزرع والماء والنار لم تكن الا لغاية فهكذا فليكن الانسان له غاية وهي نفسه الباقية في النشاة الاخرى واكد هذا بقوله « نحن خلقناكم فلولا تصدقون » كل هذا في سورة الواقعة فراجعها

واصرح من هذا قوله في سورة يس « الذي جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا انتم منه توقدون » وفي هذا رمز غريب جدا

وبالجملة فان القرآن يستدل بهذا وأمثاله على البعث وكأن هذه الآيات هي ثمرة حكمة الحكماء وعلم العلماء والى ذلك يشير « ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الالباب الذين يذكرون الله قياماً وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا »

واذا فنى الانسان من الوجود مرة واحدة كان هذا

العالم كله عبثاً وباطلا بل يكون كلعب الصبيان بل لعب الصبيان لحكمة وهو نموهم وراحة نفوسهم وهذا الكون لا ثمرة فيه للخالق وانما ترجع الثمرة للمخلوق ولو لم يكن الانسان حياة بعد هذه لكانت الاعمال الجزئية الانسانية والحيوانية لحكمة والكلية ضلال وباطل وهو مما لا يقبله العقل والقياس والبداهة — جسم الانسان خلاصة الاغذية والامزجة المحيطة به فهكذا عقله خلاصة الآراء والافكار والعلوم والمحدقين به من الاصدقاء والخلان وهو ينمو كما ينمو النبات والحيوان ويترقى بحسب ما يتغذى به وتختلف نهايته باختلاف ما نشأ عليه كثمار النبات كما أوضحناه تمام الايضاح وبهذا يكون موزوناً كما تزن عالم النبات والحيوان ويكون جزاؤه موزوناً بميزان كما عليه كل نبات ان نهايته على حسب بدايته . ولقد شاهدت أيها الفتى وزن النبات بالحس فهكذا يكون وزن العقول والاعمال والنفوس والآراء وغيرها سواء بسواء لما بين العالمين من التشابه في النمو والارتقاء « والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك هم الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون » « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم

نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل اتينا بها وكفى بنا حاسبين » وهذا كما لا ينقص الاكسيجين والادروجين ذرة واحدة في الماء وهو واضح في جميع علم الكيمياء وضوحاً تاما بأدنى التفاتة. الله الذي انزل الكتاب بالحق والميزان » « ووضع الميزان الا تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » ومثل هذه الآيات كثير فبين العالمين تشابه وهذا كما شرحه الشيرازي في أسفاره والغزالي في مؤلفاته والطوسي والرازي في شرحيهما على الاشارات وهكذا ابن سينا والفارابي

ولما قرأ الغزالي القرآن بعد ان قرأ العلوم وتدبره قال اني آمنت بمحمد صلى الله عليه وسلم بمجرد هذا الكتاب الذي يستحيل ان يأتي بمثل هذه البراهين التي فيه الا من قرأ جميع العلوم وحاز النهاية في الحكمة واذا كان هذا أمياً في وسط أميين وهذا الكتاب جاء بنهاية الحكمة فأنا أؤمن به على علم لا تقليد اذ يستحيل ان يكون هذا الا بأمر خارق للعادة خارج عن السنن المعهودة عادة

وشأن الايمان اذا كان على علم ان يثبت كما ثبت ايمان سحرة فرعون بموسى اذ كانوا علماء بالسحر وجاء بما هو أعلى

منه ولم تحط به علومهم وشأن المقلد ان يتزلزل يقينه كما في بني اسرائيل آمنوا تقليداً فلما جاوزوا البحر « قالوا ياموسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون ان هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون قال أغير الله أبغيكم الها وهو فضلكم على العالمين » وهذا من أحاسن قصص القرآن التي جاءت لمثل هذا الاستنتاج والفرق بين المقلد وصاحب البرهان بمثال جميل مفهوم يأخذه العامي تقليداً كحكاية بسيطة ويأخذه العالم به رموزاً وحكما وعلوماً كما قال « وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون »

﴿ كيف يتفق الحزبان الديني والدنيوي ﴾

متخرجو المدارس اقرب الناس لفهم القرآن

يختلف استعداد النوع البشري في المدارك والشعور والاخلاق والعادات اختلافاً كبيرا وكلما ارتقوا في درجات المدنية والحضارة والعلوم انفرجت مسافة الخلف في المشارب والاذواق وفهم العلوم اختلاف الارض للانبات والاحجار للايقاد والاشجار للاتقاد والاجسام لقبول الحرارة والهيولى لقبول الصورة وجميع الاجسام لظهور الكهرباء

النوع البشري جزء من الكون حكمه كحكمه تختلف أفراده في الفهم والعقل اختلافهم في الصور والاشكال والبقاع والازمنة والامكنة والاغذية والملابس ومن كان أغزر مادة وأعلى تصوراً وأجمل فهما كان أسرع الى الفهم على مقدار ما أوتى من الذكاء الفطري الاستعدادي والاكتسابي كمتخرجي المدارس الذين درسوا علوما تؤهلهم لفهم ما يلقى عليهم من حكم القرآن وعجائبه

خبرتهم أمداً طويلا وحادثتهم كثيراً فوجدت أكثرهم يسمعون ويعقلون اذا أتينا لهم بيوت الفهم من أبوابها وسلكنا معهم مسلك السلف الصالح رضي الله عنهم في تصوير المعنى وجعل اللفظ كمقدمة له اي وأيم العلم انه الحق

حادثت بالامس فتيين منهم فسألاني ان اسمعهما آيات من القرآن وتفسيرها فقلت نعم وقرأت ١ « ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه الينا قبضاً يسيرا » ٢ « وهو الذي جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشورا » ٣ « وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا »

٤ ٠ لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيرا ،
٥ ٠ ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس الا كفورا ،
ثم قلت ١ أنتما تعلمان ان الظل يكون ممتداً في الغدوة على سطح الكرة الارضية فاذا طلعت الشمس أخذ يتقلص وينقبض يسيراً يسيراً وشيئاً فشيئاً حسب نظام الشمس ومقابلتها بنظام مخصوص بدورة الارض ولحسن ذلك الاتقان في السير يستدل على مواقع الظلال بسير الشمس في الظاهر حتى يعلم المسافرون في القفر والفلاحون في الحقول والفقراء في المنازل ويرتبوا أعمالهم على ذلك فنظام سير الافلاك لهؤلاء منة كبرى اذ لا ساعة عندهم ترشدهم ولا علم لهم بالغيب يهديهم فهذا معنى الجملة الاولى وهي ١ (ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه الينا يسيرا)

ثم أنتما تعلمان ان الشمس ذات ضوء لامع وحرارة متقدة وهما جيشان أرسلا الى الارض للمنافع العامة وبالضوء تكون الظلال التي مر ذكرها ويتعاقب الليل والنهار شتاء وصيفا ويختلفان كما وكيفا وحرارة وبردا كل ذلك بحساب بديع ونظام

متقن وكل هذا بمقابلة الارض بوجهها الشمس تارة وادبارها أخرى . فبالمقابلة النهار وبالادبار الليل وحكمة الاول الانتشار في الارض للمعاش والثاني السبات أي الراحة بالنوم وان تكون ظلمته لباساً لنا يسترنا لتهدأ الحواس ونعوض بالراحة ما فقدناه بالعمل في النهار وهذا معنى قوله في الجملة الثانية (وهو الذي جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً الخ) فهاتان الجملتان استوفتا الامور العامة في الضوء وهي الظلال والليل والنهار

ولعمري ان ضوءها لحواسنا وحرارتها كقدرتنا على العمل وشأن الاول أن يقدم على الثاني ولذلك شرع يذكر بعدها نواتج الحرارة وفوائدها على سطح الكرة الارضية وما في ذلك من المنافع الجليلة فأنبأ ان الحرارة تنبعث أشعتها من الشمس فتسطو جيوشها على البحار الملحه فتجتذب الابخرة وتصعد بها الى الجو وترفعها الى الطبقة الباردة فتتكاثف هناك ثم تنزل على الارض فتحيي الارض بالنبات وتكسو وجهها جمالا وحلية وبهجة وزينة ويميس النبات في حلل الاوراق وحلي الازهار وتميل أغصانها عجباً وتيهاً ويشرب الحيوان والانسان على جميع سطح الكرة الارضية وما بقي منه يرجع

الى البحر كرة أخرى ثم يتبخر ويصنع مثل ما مضى فهكذا يكون الى ن ينطفئ مصباح الشمس وتزول الحرارة وتتبدل الارض غير الارض فكان هذه العناصر المائية كواكب تدور في الافلاك او رياح تجول في جو السماء او الدورة الدموية في اجسام الحيوانات .

لابد قبل نزول المطر من دلائل تدل عليه كما جعلت الشمس وحسن نظامها دليلا على الظلال اذ لا علم للبشر بالامطار قبل نزولها بخلاف الشمس فلذلك نرى الرياح تاتي الناس مبشرات امام المطر ليستعدوا له ويستيقظوا لمصالحهم الخاصة بهم وهذا كله معنى قوله ٢ — و٣ — (وهو الذي ارسل الرياح بشرا بين يدي رحمته وانزلنا من السماء ماء طهوراً لنحيي به بلدة ميتا) الى آخر الجملتين الاخريين ـ فانظر كيف ابان في الجملتين الاوليين فوائد ضوء الشمس والاخريين فوائد الحرارة باوجز عبارة واحسن ترتيب وهذا هو اللائق بتفسير القرآن الشريف فقال احدهما انه ذكر النعم على الناس بالاغذية والمنافع والمشارب حيث يقول ـ (وانزلنا من السماء ماء طهوراً) ـ ولم ذكر طهوراً هنا واي مناسبة بين الطهارة وذكر الماء

للشرب وروَى الارض واحيائها فقلت ـ يفيد انه كما به تكون حياة الجسم تكون طهارة البدن لتتجه الروح الى مدبر الكون وتعرفه وهذا من الكنايات اللطيفة والرموز العجيبة المندمجة اثناء ذكر هذه النعم فكأنها ذكرت لتحمل على الطهارة فالعبادة فالمعرفة وهي المقصود من الحياة

ثم ان اكثر الناس لا يعلمون لم خلقوا وما رباط الجسم بالروح وما هذه الحياة فنسوا تصريف الماء ما بين ملح اجاج تارة وعذب فرات اخرى وتطوره وتشكله باشكال مختلفة في باطن الارض وظاهرها من انواع المياه المعدنية والانهار والبحار واختلاف الطعوم اختلافا كثيرا وما يتبع ذلك من المنافع وهكذا تفننه في التثلج والسيولة والتبخر

فالويل مرة لمن جهل والويل ثم الويل لمن قرأ العلوم العصرية وهو غافل عن هذه العجائب فانظر اكيف يقول الله بعدها (ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى اكثر الناس الا كفورا)

ولما سمع الفتيان هذا القول مني فرحا به كما يفرح الصادي بالماء وكأنما كانت هذه المعاني مركوزة في طباعهما ما منتقشة

في قلوبهما حاضرة عندهما

القرآن جمع بين مطالب الروح والجسد أو الدين والدنيا أو العلم والعمل أو الادبيات والماديات فانظر كيف ترى توصيفه لمحاسن الطبيعة وما في الكون من علوم ومعارف لتتحلى النفوس بكمالها وتسعى لمطالبها في الحياة وتسعد سعادتي الدين والدنيا

في أمتنا المصرية خصوصاً والاسلامية عموما طائفتان اثنتان علماء بحياة الروح كافاضل العلماء بالازهر الشريف وعلماء بحياة الجسم كمتخرجي المدارس وكلاهما يجهل ما عند الآخر فينفر منه ولربما ذمه او عده جاهلا (ولبئس ما شروا به انفسهم لو كانوا يعلمون) ولو ان كل فريق عرف ماعند الآخر ولو اجمالا لاتحد الحزبان واتفق الفريقان وتالف الاخوان (فبأي آلاء ربكما تكذبان)

لاتتم علوم الدين الا بالالمام بعلوم الحياة ولا تتم الحياة الا بالالمام بعلوم الدين فمطالب الاجسام متحدة بلوازم الارواح فهما توأمان أو يدان أو العلم والقدرة أو النمو والحياة

اذاً لابد من عقلاء يؤلفون بين القسمين ويجمعون الطائفتين ويكونون قد أخذوا حظا من العلمين ليتالف الطرفان

ويجتمع الاخوان اذ لاغني لاحدهما عن الآخر لترتقي الامة وتسعد - فاذا تركت الامة وشانها ضاقت عليها الارض بما رحبت وبقيت في التفرق والاختلاف الى امد بعيد (فان تولوا فانما هم في شقاق)

الا فلتنشر المعارف ولتبث العلوم وليحي الوطن والامة والاسلام فهبوا أيها الاخوان من رقدتكم وانظروا لامتكم (ولا تيأسوا من روح الله انه لايأس من روح الله الا القوم الكافرون) حينئذٍ يتمثل كل فرد من افراد الحزبين بقوله تعالى (رب اشرح لي صدري ويسر لي امري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيراً من اهلي هارون اخي اشدد به ازري واشركه في امري كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً انك كنت بنا بصيراً)

﴿ الاحكام الشرعية والقرآن ﴾

نظرت في القرآن والاحكام فتاسفت على كتاب لانقرؤه الا اماني ولا نفهمه الا من وراء حجاب الجدل والوقوف على قول امام واحد ذاهبين عن حكمة التشريع الى الفاظ الكتاب

من أدهى المصائب التي حلت بأمتنا اثنتان الذهول عن اجتهاد غير واحد وجمود القرائح على أمثلة الكتاب فكأن الدين ما نزل الا لفهم عالم واحد ومثال معلوم ولنوضح ما أجملنا فنقول

لنبدأ بالكلام على جمودنا على قول واحد فنقول

ياقوم كنا خير أمة أخرجت للناس اذ نزل علينا كتاب من السماء نقرؤه وحديث نبينه وأئمة اجتهدوا وما كان اجتهادهم الا عقاقير وأدوية لأمراض الامة زماناً ومكاناً رحمة من الله ورأفة منه بعباده الضعفاء المتفرقين في بلاده بين أفريقي واسيوي وأوربي وأمريكي واقيانوسي فلما علم انه سيفرقهم على سطح الكرة الارضية الهم الائمة المجتهدين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم فراي كل رأيه فيما علم حتى كثرت الاقوال ودونت في بطون الدفاتر والكتب الى وقت مسيس الحاجة اليها فيهب المصلحون للامة ويقومون بعد سباتها العميق ويشخصون امراضها ويصفون من تلك الادوية عقاقير يرفعون اسماءها الى حكامهم وتصدر بذلك اوامرهم فيقوون الضعيف وتسير الامة على سواء الصراط .

ذكر الامام الشعراني رحمه الله تعالى في مقدمة الميزان ان اقوال الائمة المجتهدين انما كثرت لتكون نبراسا يهتدي بها امم واجيال تحدث لهم وقائع واحوال في ازمنة وامكنة مختلفة وهذه هي الحكمة في انزال السنة والقرآن بألفاظ مشتركة ليناسب الاختلاف في الفهم الامم المختلفة

العلماء في الامة اطباؤها ومتى قصر فهم الطبيب وجمدت قريحته فداوى المرضى كلهم بدواء واحد دل على سوء تصرفه وامات المرضى اجمعين

هل ينفع الطبيب اذا نزل القضاء بالمرضى والمدنفين احتجاجه بان ذلك وصية معلمه . كلا . وانما هو احتجاج من حرم البصيرة وساء مصيره ساء مثلا من يداوي المرضى جميعا بدواء واحد ويحكم الناس اجمعين بقول امام واحد ويضيق رحمة الله والله رؤف بالعباد وذلك وايم الله من الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا

قصرت عقولنا عن التبصر فتقلص ظل احكام الشريعة الغراء عن اظلال هذه الامة فاستظلت بظل من يحموم لا بارد ولا كريم من قوانين وضعية وكانها لما بعد عنها ماء العلم الشرعي

يفقد المرشدين والهداة تيمت بالتراب

نزل الوحي وجاءت الشرائع واجتهد الائمة لمصالح الامم واقامة مدنيتهم في هذه الحياة الدنيا فالشارع والمجتهد يريدان رفع الاصر والاغلال عن اعناق هذه الامة فالويل ثم الويل لمن ينكسها ويجعل عاليها سافلها ويرجع الكتاب كله ومصالح الامة اجمعها لرأي واحد كأن الله خلق الامم وانزل الشرائع لتكونا دائرتين مركزهما ذلك القول . (ألم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين اوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الامد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون)

ياقوم حرام علينا ان نرى الامر خرج من ايدينا تدريجا ولم يبق بايدينا الا القليل ثم ننام في سباتنا العميق ولا ننظر لاخواننا الضعفاء بعين الشفقة والرحمة . وحرام على من اوتي علما ان يكتمه لاسيما في هذه الايام

وبالاجمال يجب على كبار القوم ان يؤلفوا لجنة تنتخب من الاقوال ما يناسب الزمان والمكان في جميع الاحكام وليس هذا اجتهادا جديدا كما قد يظنه من يتمسك بمنعه فيوقف

دولاب الحركة الفكرية والاعمال الاسلامية والنهضة العلمية وانما هو استثمار تلك الابحاث الشريفة

اما الامر الثاني وهو جمود الفطن على أمثلة الكتب فهو عام في جميع العلوم حتى صار المشتغل بها ليس له منها الا النية اما العمل فما أضيعه في غير العبادات وذلك عام في المعقول والمنقول . ولنضرب لذلك مثلا بفرض الكفاية في علم الفقه فان الفقهاء يمثلون عند ذكره في كثير من الكتب بصلاة الجنازة ودفن الميت ورد السلام وما يشاكل ذلك وفي بعضها يذكرون الصنائع بوجه عام لا تفصيل فيه فيقرؤه المتعلم والعالم كما قال الله تعالى (وكم من آية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون) فلا ترسخ في العقول والاذهان رسوخ الايمان وانما يمرُّ مرور البرق الخاطف

فلذلك حرمت الامة ثمرة الصناعات وانها وأيم الله لمن فروض الكفايات التي تعذب الامة كلها اذا لم يقم جماعة منها فما دمنا نحتاج الى ابرة أو آلة بخارية أو طربوش أو جزمة او بناء او مهندس من الخارج او الى اي صانع فعلى الامة كلها الاثم والذنب فيعذبون عذابين عذاب الحاجة والجهل في الدنيا

(ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون)

الصناعات واجبة على الامة وجوباً كفائيا فاذا قام به جماعة وحصلت بهم الكفاية سقط الاثم عن الباقين فان لم يكف للحاجة او لم يقم بذلك احد اثمت الامة كلها كما حققه الامام الشافعي في الرسالة في باب العلم وفصله الغزالي رحمه الله تعالى في الاحياء وشنع فيه على الاقتصار على علم الفقه بل صرح الامام الشافعي رحمه الله تعالى في الرسالة بأن معرفة فروع الفقه التي تكون بين الخاصة فرض كفاية ولم يجعل فرض العين الا الاحكام المعلومة عند العامة المأخوذة من ظاهر القرآن

وبالجملة فمن قام الآن لاحياء صناعة في المسلمين او اختراع آلة او تأسيس شركة لها او بناء مدرسة تخصص للصنائع فله بحكم الشريعة اجرها واجر من عمل بها الى يوم القيامة ويكون هذا العامل من أعظم المجاهدين في الامة ويكون حكمه في نظر الشرع حكم مجدد فاتح قائم بأمر الله

والويل ثم الويل للامة ان بقيت في كسل عن الصنائع والويل ثم الويل لعقلائها وعلمائها ان لم ينادوا الناس جهاراً في الجرائد والمجلات بان هذا واجب ديني لا يمتاز عن العلوم

العربية التي هي آلة لفهم القرآن وهذه آلات لبقاء الابدان وبدون هذين لا يتم اسلام ولا ايمان لأنه اذا لم يكن المؤمن فلا ايمان

جاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم (من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة)

فكل من سعى في احياء صناعة او اقتباسها من الغربيين فليبشر بثواب عاجل وثناء عاطر وجنة عرضها السموات والارض « وان الله لمع المحسنين »

فالبدار البدار الى العمل واني ادعو اهل العلم عامة ان يلاحظوا فرض الكفاية ويعيروه جانب الالتفات ويبلغوا هذا العلم للناس واضحاً ليعلم العامة والخاصة ان احياء الصنائع والاشتغال بها لا سيما في هذا الزمان من اعظم القربات الى الله تعالى اذ يقومون بفرض عن امتهم فيرفعون الاثم عن اخوانهم ويفوزون بالاجر في الدنيا والآخرة من الثناء والثواب وفي ظني ان المسلمين لو علموا ذلك لسابقوا الغربيين وكل خطيب بادر الى الحث على ذلك فله اعظم ثواب عند الله ويا حبذا لو قام الامراء وخطبوا بين الاغنياء في كل مديرية

وساعدهم على ذلك العلماء لرأيت نهضة عالية وهمما شماء

قابلت بالامس شاباً من القوامين على السجون فتذاكرنا أحوال السجون والمسجونين الى ان ذكر الصناعات واتقانهم لها فقلت له لو يعلم هؤلاء انهم يقومون بواجب ديني على الامير والصعلوك والعالم والجاهل والكبير والصغير والغني والفقير لنالوا ثواباً بكل حركة من حركاتهم بل يكونون في سجنهم كالعلماء في دروسهم اذ كلاهما واجب ديني وفرض كفاية بل صناعتهم كصناعات علوم البلاغة من النحو والصرف والمعاني والبيان والبديع وكالطب والفقه فعجب الشاب من قولي فقلت لعلك لم تعلم هذا الحكم من قبل فقال نعم ثم استطردت معه الى انه اذا أمكنه اقتراح على الحكومة في مركزه لتوسيع الصنائع فليفعل ليقوم بركن هذا الواجب الديني وانا ما دمنا نحتاج الى أعواد الكبريت ونسيج القطن من بلد خارج فنحن بحكم الشرع معذبون فبقدر عدد الصنائع المفقودة من بلادنا نحمل جميعاً ذنوباً فقال لي ان هذا بعينه هو فكر كولس باشا مدير عموم السجون

فما دام العلم في شق والامة في شق فهي في شقاق بعيد

وحيل بينهم وبين مايشتهون لعدم العلم والمعرفة ولكثرة الشكوك والاوهام والريب . وليعلم اخواني ان الله تعالى يحب الصانع الحاذق وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله تعالى يحب الصانع المتقن في صنعته

ألا فليقم الخطباء والوعاظ والعلماء وليبينوا للخاصة والعامة ان هذا واجب ديني وان الله لا يضيع أجر من أحسن عملا

﴿ السياسة وطريق التعليم ﴾

قدمنا المقال في الكتب وضعف فهمها والصناعات وتركها والعبر ونسيانها والقصص والاحكام وهجرها والمواعظ وجهلها حتى يصح أن يقول الرسول فينا بين يدي ربه (يارب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا) — مضى على الاسلام أمد طويل من الدهر فشب في الصدر الاول وزمن الامويين وصدر العباسيين الى حوالي المائتين ثم اعتراه الانقسام وفترات تتخللها أوقات فيها يترقى العلم قليلاً ثم يرجع الى الظلمات والفتور والاحن كقوم أبرقت السماء عليهم ليلا وكلما أضاء لهم البرق مشوا فيه واذا اظلم عليهم قاموا ثم أتت جائحة التتار فاجتاحت

الامة واكتسحت جل المسلمين ثم تلتها الحروب الصليبية وكان اذ ذاك مبدأ تنبه الغربيين في أوائل القرن الحادي عشر وتساوى الطائفتان في القرن الرابع عشر وسبقنا القوم أشواطاً في خمسة قرون الى الان ولقد اعترى علومنا وتآليفنا من الضعف ما اعترانا حتى انك لترى الكتب المؤلفة في العربية وغيرها لا يخلص للاذهان منها الا رشحات وفضلات من العلم لا تروي صادياً ولا تبل غليلا

انا ليحزننا يا قوم ان نرى في كتاب « سر تقدم الانكليز السكسونيين » أن لغة البلاد يتعلمها الطفل في سنتين ثم يتعلم لغة أخرى في مثلهما ثم أخرى كذلك فما يتم التلميذ خمس عشرة سنة الا وقد تعلم ثلاث لغات على الاقل مع علوم الادب والحساب والمعاملات وأغلب أعمال الحياة ونحن يدخل الرجل منا في التعليم الديني وسنه خمس عشرة سنة ويبتديء في قواعد اللغة فيدور فيها كما يدور الحيوان في رحاه من كتاب الى كتاب من هذه التاليف الاعجمية التي قصرنا نظرنا عليها حتى أصبحنا لا نلوي على كتاب ولا سنة الا ما كان من فيض فيض تلك الكتب وما أنقصه من فيض وما أضعفه من عمل

يمضي الانسان منا شبابه في ذلك التعليم ويأخذ فيه الشهادة فاذا طلب منه خطاب أو خطابة أو تأليف عجز الا عن تلك العبارة الاعجمية ولو سئل عن القرآن وأعجازه لقال بلسانه انه معجز البشر وهو وايم الله يقول في نفسه انما أنا مصدق به على سبيل التواتر أما الاعجاز فلا أعرفه بنفسي لضعفي في ذوق اللغة وانما هذه الكلمات لا ينطق بها ستراً على الجهل وخوف العار

حرام علينا ياقوم ان يسبقنا الناس بطرق التعليم الحسنة ونحرم انفسنا واخواننا من علوم الدين والتهذيب والعقل

يا قوم من لنا بهداة وعقلاء يقومون فينا بتغيير الطرق القديمة المائتة بطرق حية ليحيا الاسلام والمسلمون

حادثت في هذه الايام أحد مشايخي الذين كنت احضر عليهم زمن التعليم بالازهر فقال لي كثير من الناس يعترضون علينا في طرق التعليم فقلت له يجب على المسلمين جميعاً الامر بالمعروف وهذا حق لامراء فيه وانا مع اولئك القائلين ثم قلت له ياسيدي انت نفسك اول قائل بوجوب التغيير فقال وكيف ذلك فقلت نعم الم تقل لنا في الدرس (من اتبع الحواشي ما

حواشي) كنت تقول ولا تفعل فسكت الشيخ فقلت له ياسيدي انك تعلم ان ترك الحواشي أحسن ولكن الطلبة لا يعتقدون في الشيخ الا اذا اغرب واتى بما يصعب عليهم وما هو في غاية الغموض فقال صدقت ثم جرى بنا الحديث الى الخوض في الطبيعيات فقال لي الست تعلم انها مذمومة في كتبنا فقلت بلى فقال اذاً كيف تمدحها فقلت اذكر الاستاذ بانّ كتب التفاسير لا سيما تفسير الرازي مشحونة بالطبيعة والفلك في تفسير الآيات اليس كذلك فقال بلى فقلت ان العالم اذا وصلها يقول هذا كلام الفلكيين هذا كلام الطبيعيين ويتركها ويمضي .كأن الانسان اذا جهل شيئاً يجب ان يغمض عنه ستراً لنفسه فقال صدقت هذه كتب اسلافنا كما رأيت مفعمة بهذه العلوم وهذه الامم حولنا كذلك فلم يخالف الجميع سوانا ـ القرآن كله يبحث عن العالم والكواكب والنبات والحيوان والامم الماضية فهو اعظم داع لهذه العلوم بل لا يكمل الايمان لا سيما في هذا الزمان الا بها فقال صدقت بعد ان الزمته بالحجج.

وكما انها جعلت لنظام الدنيا فهي ايضا لنظام العقل والدين

فعلى قدر ظهورها في الصنائع تظهر في الافكار والعقول واما قول اولئك المؤلفين فانما هم قوم ناقلون عن قوم آخرين ردوا على اناس لم يعرفوا من الطبيعة الا الفاظاً سوفسطائية كالعلل النحوية ولعمري ان هذا كله ناجم عن احاطتنا باربعة اسوار من حديد فاغشى علينا فلم نبصر شيأ من الامم حولنا سور الجهل وسور سوء الاخلاق وسور الآراء الفاسدة وسور الاعمال الضالة

والادهى والامرّ من هذا كله ان المسلمين لا يزالون يجعلون الخلاف في الفروع من دواعي التفرق والاختلال والانحلال مع ان الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي والزيدي والسني والشيعي كلهم دين واحد واصول عقائدهم واحدة والخلاف فيها لا يضر بالاصول وانما يكون في بعض الاشخاص او الفروع او الصفات وهذا كله ناتج من جهلنا بما حولنا وعدم فهمنا فهما عمليا قوله تعالى (ولقد اهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون)

وكأن الله لما اذهب الاندلس وكثيرا من بلاد الاسلام من ايدينا يريد ان ينبه شعور الباقين ولعمري ان هذا لا يكون

الا اذا عرف هذه الاحوال العلماء في العرب والترك والعجم ومصر وجعلوا مبدأ التعليم واحدا مع التحاب والتواد وكيف نعرف الاحوال الا بالسياحات في الشرق والغرب

اني ليحزنني ان ارى الشرقي اذا ذهب الى الغرب فانما يذهب بقلب لا يعقل واذن لا تسمع وعين لا تبصر واذا جاء الغربي الى الشرق وجدت آذانا مصغية واعينا مبصرة والسنة ناطقة واقلاما كاتبة فليست سياحته قاصرة على حسن المناظر وتغيير الهواء والانس والايناس

السياحة وما ادراك ما السياحة . السياحة فرض كفاية على المسلمين شرقا وغربا وليس مجرد السياحة يدفع الاثم عن الامة بل لابد من التبصر والاعتبار والفكر فيما ينفعها (فاعتبروا يا اولى الابصار)

اذاً وجب علينا ان ننظر بانفسنا طرق تعليم الامم المعاصرة لنا ونأخذ باحسنها واسهلها واجملها واقد انذر ابن خلدون وابو بكر بن العربي وحذرا الامة من هذه الطريقة وقالا انها تميت الاسلام حتى قال ابو بكر في رحلته فيما نقله عنه ابن خلدون ياغفلة اهل بلادنا يتركون الصبي لا يعرف من

العلوم شيأ سوى الحفظ بلا عقل الى ان يفوت زمن التعليم ويبتدئ في العلم على هذه الطرق السقيمة الى آخر معنى ماقال ثم اتفقا على ان هذا دليل على تفاقم الخطب وانه داء عز دواؤه لرسوخ العادة .

حادثت رجلا من العالمين باللغات الاجنبية في احوال الامم الشرقية وسالته عما يسمعه من الاوربيين فقال ذكر لي سائح الماني وهو يحادثني انه عاشر اهل العراق نحو عشرين سنة حتى اطلع على علومهم والف كتابا برهن فيه على ان الامم الشرقية آخذة في الانقراض لرداءة طرق التعليم فيها وخمود الافكار وجهلهم بتقدم الامم الحاضرة وما بعد موت الافكار سوى انقراض الأجسام فعجبت من مطابقة هذا القول من الغربي في القرن التاسع عشر ما قاله ابن خلدون الشرقي من نحو القرن الرابع عشر وكيف تطابق الفكران فياضيعة الشرق والشرقيين ان لم يقم فيهم مصلحون وحكماء مرشدون وياويلهم اذا ارشدهم الحكماء وهم غافلون (اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون)

﴿ الخطب والخطباء في الاسلام ﴾

ورد في الحديث (اول ما خلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل ثم قال له ادبر فادبر ثم قال وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا هو اعز عليّ منك بك آخذ وبك اعطي وبك أثيب وبك اعاقب اه) وكم في القرآن من آية تسجل الخزي والعار على امة لا تعقل والفلاح والنجاح لقوم يعقلون

قضت سنة الله ان تجري الامور في اوائلها على الحكمة والسداد على ايدي الكبراء المصلحين كالنبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه فاذا مضت قرون وتبعتها اخرى نظر اللاحقون ما بأيديهم من الاقوال فظنوا انها قيود احكمت عليهم او سد من بين ايديهم وسد من خلفهم اغشيام فهم لا يبصرون خير الامة وعبدت الالفاظ كما يعبد الوثني الاصنام ونسوا ماذكروا به كما قال (فطال عليهم الامد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون)

نعم قست القلوب فاصبحنا لانعرف من الصلاة الا مجرد الرسم والاسم ولا من الذكر الا اللفظ ولا من العلم الا القول ولم ننظر لماذا وضعت وما غايتها حتى اصبحت الصلاة لاتنهى

عن الفحشاء والمنكر لعدم ممازجتها للنفوس وهكذا قراءة علوم الآلات والمقاصد وهكذا القرآن يقرأ ولا تفكر فيه ولا تدبر وكم ندد الله على بني اسرائيل في ذلك كقوله تعالى (ومنهم اميون لا يعلمون الكتاب الا اماني وان هم الا يظنون)

وهذا بعينه هو الواقع في الاسلام اليوم

كنت ليلة في قرية من قرى الريف فرأيت رجلا يقرأ وحوله السامعون يتناولون الطباق ويتحادثون فخيل لي ان الاسلام في حركة المذبوح وهؤلاء المتحادثون اطرافه المضطربة يمينا وشمالا الى ان يقضى عليه لا قدر الله ولم يقتصر جمود القرائح على ذلك بل سري الى الخطب . الخطب وما ادراك ما الخطب . بها تقام الجماعات والامم . وفي سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه والملوك الامويين له وصدر العباسين مافيه كفاية لمن له ادنى الملم بالتاريخ

ماتت الخطب فتفرقت الامة ايدي سبا فزال الشعور وزفت الى الغرب وها هو البريد يحمل لنا كل مساء خطب الملك او الوزير او القائد وقام فلان في البرلمان وفلان في مجلس الاعيان . خطب كلها في احوال الامة واصلاحها

هكذا كانت خطب السلف الصالح رضي الله عنهم كسيدنا ابي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم فلقد كانوا يمزجون صوالح الامة بالمواعظ فكان لها اعظم وقع في النفوس فهي لاتخالف خطب الغربيين الا في الكم او الكيف

كم وقف سيدنا علي رضي الله عنه معيرا لقوم من اصحابه بالتقاعس عن الحرب مثلا مادحا آخرين بالاقدام والعمل وغير ذلك كما يعلمه من قرأ العقد الفريد لابن عبد ربه او نحوه وعلى نحو ما يضعه الغربيون اليوم وعن اسلافنا اخذوه

فياليت شعري ما الذي غير حالنا وابدل عزنا ذلا وعلمنا جهلا من لنا بامرائنا وكبرائنا ان يقوموا خطباء مرشدين بين قومهم كما كان يصنع اسلافهم والغربيون من حولهم في ارشاداتهم

جبلت النفوس على تقليد ذوي النفوذ والمكانة والشرف

بل ان قلنا كان يلزمهم ان يصلوا بهم لم نكن مغالين. وفي قضية عمرو بن العاص ومعاوية وعلي رضي الله عنهم واتفاق الخوارج الثلاثة على قتلهم في يوم واحد وفي وقت واحد ما يشهد انهم لم يكونوا يتركون الصلاة بالناس في المساجد

ويعلمون انهم لا يتمكنون منهم الا في وقت الصلاة

شرعت الخطب لتذكير الشعوب الاسلامية بأمورهم العامة مع ذكر الله معها ليكون ذلك أمراً دينياً فيأخذونه بالقبول والتسليم. علم الامام الاعظم أبو حنيفة رضي الله عنه والامام الشافعي من العلم ما لم نعلمه لقربهم من زمن الصحابة والخلفاء ورسول الله صلى الله عليه وسلم وعلما غرضهم وما ترمي اليه سياستهم في الدين والدنيا فشرط الاول في الجمعة ان لا تقام الا في البلاد الكبيرة المسماة عندهم بالامصار كالقاهرة والمديريات وما شاكلها. وشرط الثاني ان لا تقام الا بأربعين عدل مقيمين في البلد لا يظعنون عنه صيفاً ولا شتاء الا لحاجة وان لا تقام الا في مكان واحد

فياليت شعري كيف غفلنا عن ادراك ما ترمي اليه مداركهم السامية وشرط الامام الاعظم المصر في الجمعة لعلمه انها محل الامراء وأهل الحل والعقد في كل ناحية فيسمعون الخطبة من الامير ويعملون لمصالح الامة العامة. ويقرب منه نظر الامام الشافعي رضي الله عنه. ولعمري ان توحيد الجمعة وحصرها في مكان لم يكن الا لغرض ان يقوم الامير لاولئك

العدول فيعظهم ويذكرهم باحوالهم الحاضرة لا كما نقرؤه الآن في الدواوين . كم من مصل شافعي يصلي الظهر بعد الجمعة ولكن هو الجهل اضاعنا وتركنا لاندري لاي غرض يرمي شرعنا . ومن العجيب ان القرآن قد يسمي باسم الامر المهم سورة كالجمعة لهذا الاجتماع والحديد لمنافعه العظيمة والنحل والعنكبوت والنمل للتفطن لصغار الحيوانات الحكيمة الصنائع وكالنساء والطلاق

فانظروا حالنا اليوم هل هذه الخطب هي المقصودة وهل استفدنا منها شيأ في ديننا او دنيانا كلا فانه لايخطب فينا في غالب القرى والامصار الا جهلاؤنا فلا يؤثر الوعظ في عقلائنا

الخطيب لايؤثر التأثير الاعظم الا بجمعه بين قوتي الصولة والعلم فاذا فقد احدهما او كليهما ضعف التاثير على مقدار مانقص ونحن لانريد بهذا الزام الامراء بالخطب كلا فان العادة قد استحكمت وانما نطلب منهم ان يعيروا هذا الامر جانب الالتفات كما كان اسلافهم من نحو ٨ قرون فصاعدا ولنا في نظارة الاوقاف ومديرها الهمام الغيور الذي اشتهر بين الملأ بحب الاعمال الجليلة والمشروعات المفيدة العظيمة اعظم امل ان

يجعل فيها تفتيشا خاصا بالخطب والخطباء ليسيطر على الخطابة في بلاد القطر المشهورة بالتدريج ويرشدهم المفتشون الى ماينفع الامة في الامور الخاصة المستحدثة ويكون في كل بلدة بحسبها على مقتضى الكتاب والسنة وان تهجر هذه الدواوين وتلغي هذه التكلفات التي لامعنى لها الا تلاوة الالفاظ من قلب لايحس بها كما يجب ان تنقح طرق سير العلوم في محال العلم

[وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون]

﴿ الدين والجامعة ﴾

الدين اقوى اساس تشاد عليه دعائم الروابط الاجتماعية بين افراد امم النوع الانساني مهما تباينت مشاربهم واختلفت اغراضهم وافترقت اهواؤهم وتعددت لغاتهم فهو اجمع من الوحدات الاخرى كالجنسية والوطن واللغة وهذا اجمال نفصله فنقول .

ليس الانسان ما نراه من شكل ظاهر وما نعلمه من اعضاء باطنة اذ كثيراً ما يعبر الانسان عن نفسه (بأنا) وهو غافل

عن شخصه الجسماني فمرجع الضمير والانانية انما هو امر مغاير للجسمية مفارق للمادة ألا وهو تلك اللطيفة الهابطة من عالم مسيطر فوق عالمنا المادي مهيمن عليه تتصرف في الجسم بحسب مايبدو لها من صلاح أو فساد لها اتصال بمبدئها نحس في كل آن بأن هناك سلطاناً قاهراً فوقها قادراً على أن يوليها سعادة أو شقاء احساساً فطريا لا يغادرها .

وتلك اللطيفة هي الروح وما ادراك ما الروح — سر من عالم الابداع تنزل من عرش عظمته الى حضيض العناصر المتركبة ومهما انتقش في لوحها من عقائد وعبادات وأخلاق منسوبة الى ذلك القاهر اذ عنت له ودام ذلك الانتقاش من مبدأ الطفولية الى الاجل المحدود .

والناس انما يتحابون بما بينهم من صفات متحدة تنزع بهم الى الألفة اتباعاً لما رسم في ألواح نفوسهم كما تتحد العناصر المتجانسة في الطبيعة وتنضم أجزاؤها بعضها الى بعض فيقدر ما ينتقش في ألواح النفوس ومرآة القلوب من العقائد الدينية والاخلاق والعادات تكون تلك الجامعة وتقوي أوتهن على حسبها

فرابطة الدين أقوى مؤثر في النفوس لانها أحرزت الشرفين وهما اتصال سندها بمبدع الكائنات ودوامها الى آخر العمر . أما رابطة الجنس فهي وان دامت بدوام سببها وهي القرابة فمصدرها وهم الآباء أقل مرتبة من الربوبية وفي الآية ما هو كالرمز لذلك (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم) وكذا الحديث (فأنا اليوم أخفض نسبكم وأرفع نسبي)ولهذا السر نرى الرجل يقطع اقاربه برابطة الدين مهما تمكنت في قلبه وهذا معلوم في كل زمان ومكان وكم في الحوادث من شواهد على ذلك حتى احتج الى الوصية على الابوين المخالفين في الدين بنص مخصوص في الآية (وان جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب اليّ) واذا كانت الوحدة الجنسية بهذه المثابة من الضعف فما بالك بما هو أضعف منها وهو الوطن واللغة التي تترجم عن تلك النفوس المودعة في تلك اللطيفة فهي ترجمان عنها فرع لها تابعة لاشارتها

فكان عزة الربوبية اذ انفردت بالغلبة المطلقة والسيطرة

العالية أبت ان تكون الوحدة الغالبة الا برسمها وذلك الاختلاف عليه مدار تقدم الامم في انحاء البسيطة (والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون) فكان ظاهره عذاب وباطنه رحمة كما كان اختلاف العناصر الجسمانية في الاعراض والصفات سبباً لتألف الوحدات ونظام المركبات وتمام الامر وهذا اجمال لا يسع المقام تفصيله

نعم هي الوحدة الدينية التي ألفت الاوس والخزرج في زمن النبوة مع ما كان بينهم من شقاق وحروب دامت أعواما كثيرة فألف الله بين قلوبهم بوحدة الاسلام ونزع ما في صدورهم من غل اخواناً على سرر العزة متقابلين فعمل بنفوسهم ذلك السلطان القاهر على الروح ما لا يفعله كل ما على الارض من ذهب وفضة ومتاع (لو أنفقت ما في الارض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) ولذلك صاروا يؤثرون اخوانهم على أنفسهم ولوكان بهم خصاصة لما علمت من ان المال وجميع ما في الارض فداء لعالم النفس المشرف على الاجسام القاهرة لها وكم ورد فيهم من آية كقوله تعالى (واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم

فأصبحتم بنعمته اخوانا) الآيات تلك الوحدة هي السبب في تقدم الفتح الاسلامى وانتشاره في بقاع الارض في أقرب زمن مما هو معلوم بأدنى التفات الى التاريخ

رابطة الدين اذا تمكنت من القلوب كانت حصناً حصينا يلجأ اليه الخائفون عند الدفاع عن أوطانهم والذب عن حياضهم ألم تر كيف أرهب سيدنا معاوية رضي الله تعالى عنه قيصر الروم (وقد انتهز فرصة التشاجر بينه وبين سيدنا علي فكتب اليه يهدده بالحرب أو دفع الجزية) فكتب رضي الله عنه يقول له ان لم تكف عن هذا والا سلمت الامر لصاحبي وكنت أول سهم من سهامه يرمي به اليك فكأنما ألجم فاه بهذا الخطاب بما أوقع في قلبه من الرعب مع اشتداد الامر بينه وبين سيدنا علي

كم يعجب قارئ التاريخ اذا قرأ سيرة ذلك السلطان الشهم الحازم بالاندلس وكيف ألف وحدة دينية اسلامية أندلسية على حين تفرقت تلك الجموع وبادت تلك النفوس وتفرقوا أيدي سبا فألف (سقى الله ثراه صيب الرحمة) بين قلوب تنافرت وعناصر تمزقت بمدينة غرناطه حتى جعلها ملجأ

الخائفين من المسلمين الفارين من ظلم ملوك الافرنج في البلاد الاندلسية — أتدري من هذا الملك هو السلطان محمد الاموي قام بذلك العبء الثقيل في غرناطه وقد تفرقت بلاد الاندلس شيعاً وذاق بعضهم بأس بعض لكل شيعة ملك عليهم وأخذ ملوك النصارى من حولهم ينقصونهم من أطرافهم ويسومونهم سوء العذاب مثل جاك يعقوب الاول الذي أخذ جزيرة بلياره والملك فرديناند الذي أخذ مدينة اشبيلية وانقادت له المسلمون طوعاً أو كرهاً وهكذا غيرهما فانظروا ماذا صنع هذا الهمام

أخذ في تعليم من تحت سلطانه ضرورة الاتحاد وسن للعبادة قوانين حتمها على الرجال والنساء وأوجب عليهن الخروج من المساجد قبل الرجال والعزلة عنهم وأمر بتوزيع الزكاة والصدقات على الفقراء وأمر بابطال الندب على الاموات عند دفنهم بقراءة أدعية على قبورهم وأمر بحبس المذنبين في مكان يشتغلون فيه وأبطل الجلد في الجنح والجنايات الذي كان مستعملا قبل زمانه وسلك مسلك لويس الرابع عشر فلبرت حيث أخذ يثير الغيرة والتنافس بين أهل

الصناعات والعلوم باسداء المكافآت وهكذا من النظامات العالية حتى صارت مدينة غرناطه بعد ذلك مأوى للمسلمين المهاجرين اليها كما ان القسطنطينية الآن في الدولة العلية مأوى المسلمين المهاجرين من ظلم الحكام الروسيين والبلغاريين وغيرهم فانظر كيف تشابهت الامتان (كذلك فعل الذين من قبلهم) (كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون) وبقيت سلطتها بعد ذلك اليأس من سنة ١٢٣٨ الى سنة ١٤٥٢ ميلادية أي نحو ٢١٤ سنة فهل كان بقاء ذلك السؤدد لغرناطه الا بتلك الرابطة الدينية

وما لنا وللامم الغابرة والاجيال البائدة هؤلاء ملوك الغربيين أعمالهم شاهدة على ذلك باتحادهم على الصينيين وتألبهم أيام حروب اليونان واقتسامهم بلاد أفريقيا وغير ذلك مما هو مشاهد معروف . هذه هي الوحدة الدينية وهذه نتائجها . ولخوف الملل اكتفيت بهذا القدر وموعدنا الغد في الكلام على ضروب من السياسة التي تضمنها القرآن في غضون القصص والاحكام ونذكر مراتب الدول الثلاث والاسباب والنتائج — وان غداً لناظره قريب —

﴿ كيف تجتمع الامة وكيف تتبدد ﴾

من تأمل في آيات القرآن وما في القصص وغضونها من الاسباب والنتائج وكيف تجتمع الامة وكيف يتبدد شملها رآها صرحت أو لوحت بكل ما يشاهد في الغالبة والمغلوبة الآن ولنذكر منها آية ذكر فيها أخذ العهد على بني اسرائيل وأمرهم باثنى عشر أمراً فلم يعملوا بها الا قليلا ولنتقدم قبل ذكرها مقدمة فنقول

لكل امة ثلاث درجات . الاولى أن تقوى بينها الوحدة وتلتئم بعواطف المودة والمحبة بصلة الارحام والوالدين والاقربين والعطف على ضعفاء الامة من الفقراء والمساكين وحسن المعاشرة مع جميع الناس حتى يكون ذلك ملكة راسخة في النفوس فتحب حكامها العدل محبة طبيعية وملكة راسخة

الدرجة الثانية ان تقطع الارحام من الوالدين والاقربين وتذهب العواطف القومية كما في آية (فهل عسيتم ان توليتم ان تفسدوا في الارض وتقطعوا أرحامكم اولئك الذين لعنهم الله فأصمهم واعمى ابصارهم افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها) ويدب في الامة داء الفساد في القلوب ولكن تبقى

فيها بقية من العقل العملي فتحافظ على كيانها العمومي ونظامها الدستوري فلا يقتلون ولا يتخذون الاعداء أولياء ولا يفعلون ما يخل بالنظام العمومي

الدرجة الثالثة ان تذهب منهم عاطفة القلوب ورابطة الاجسام معاً فيسفك بعضهم دماء بعض ويوالون الاعداء ويخربون بيوت اخوانهم بأيديهم وهذه الحالة تورث الخزي في الدنيا بتفريق الجامعة ووقوعها في سلطان من يسومهم الخسف (ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) ولنتل عليك الآية الآن وهي (واذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) فهذه الصفات الثمانية اشارة الى الدرجة الاولى في الأمة ورفعة مكانتها بالتوحيد والاعتقاد والمحبة بين الافراد وتوجه القلوب الى ربهم بالعبادات والعطف على أبناء قومهم والشفقة والرحمة بهم ثم أعقبه بقوله (ثم توليتم الا قليلا منكم وأنتم معرضون واذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم) أي لا يسفك بعضكم دماء بعض ولا يخرج فريق الآخر (ثم أقررتم وأنتم

تشهدون) وهـذه اشارة الى الدرجة الثانية . ثم أعقبها بذكر الحالة الثالثة وهي تفريق الجامعة بعد ذهاب العواطف القومية ودثور النظامات الدستورية والاحكام العادلة فقال (ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان وان يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم اخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض)

ولما كان اختلال الاعمال الناشئ من تفرق القلوب موجباً لوقوع الامة في سيطرة غيرها وهو بلا ريب موجب للخزي في الدنيا والنكال في الآخرة مع انه من تمام نظام الحياة الدنيا اذ لا يجوز ان تبقى الحكومة أمداً طويلا على الظلم والتخبط في الاحكام اذ للناس رب أراد بقاءهم الى أجل مسمى فمن لم يقوموا بما عهد اليهم من الملك وتركوا الناس يبغي بعضهم على بعض . قيض الله لهم من يزيل الظالمين ويعدل بين الناس مهما كان دينهم (ان ربي على صراط مستقيم) فمثل الامة الجاهلة بتدبير شؤونها كمثل الدواب التي لا علم لها بنظام نفوسها فسخر الله لها الانسان العاقل فقام بأمرها

ولما كانت تلك سنة الله في خلقه ومقتضى نظامه وطبيعة عمرانه أردف ما تقدم بقوله (فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون) ومحصل ذلك انهم عملوا ببعض الكتاب وهو فك الاسرى من اخوانهم وتركوا البعض الآخر وهو النهي عن القتل والمظاهرة والاخراج من الديار وهذه كانت حال طائفتين من اليهود وهم بنو قريظة والنضير وكانوا حلفاء الانصار في المدينة وهم الاوس والخزرج فكانت قريظة حليفة الاوس والنضير حلفاء الخزرج فكان كل فريق يقاتل مع حلفائه فيقتلون معهم اخوانهم ويخرجونهم من ديارهم ويعينونهم عليهم ظلما وعدوانا ثم يفدون الاسرى بعد ذلك فتناقضت أفعالهم فقد آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض فكان جزاؤهم ما قصه الله تعالى وليس ذلك خاصاً بأمة اليهود بل هو مقتضى نظام الكون وليس أمراً من الخوارق

﴿ صفة أحكام الامم الظالمة وعلمائها ﴾

وصف الله حكامها وعلماءها بأخذ الرشوة والاتكال على

الله في غفران الذنوب اتكال جهالنا اليوم على الله بان يحسن حالهم ويأتي لهم برزقهم رغدا من كل مكان وتقوم جامعتهم وهم نائمون حيث قال (فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الادنى ويقولون سيغفر لنا وان يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم الكتاب ميثاق ألا يقولوا على الله الا الحق ودرسوا ما فيه الآية) وصفهم بالاتكال على المغفرة والتسويف بالتوبة ومخالفة عهد الكتاب .

﴿ وصف حربهم ﴾

قال الله تعالى (لا يقاتلونكم جميعاً الا في قرى محصنة او من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلبهم شتى) وصفهم بتفرق القلوب فلا يبرزون لعدو يقاتلونه حتى يدهمهم في أماكنهم وهم لبعضهم مبغضون وذكر سببه فقال « ذلك بانهم قوم لا يعقلون » . والمراد به العقل العملي لا النظري المراد عند ذكر خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار

﴿ الصفة العامة بعد الانحلال ﴾

قال الله تعالى (واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب)

ومن العجيب ان أمة اليهود المرادة بهذه الآية لم يبق لها شوكة ولا ملك في الارض بعد ذكر هذه الآية في القرآن وهذا الامر ظاهر لمن عرف الاحوال الحاضرة والغابرة

فهذه نبذة يسيرة ذكرناها تبصرة للقراء وذكرى لقوم ينظرون في شريعتهم ولتعلموا أيها المصريون ان هذه القصص لم تذكر في القرآن لنا الا تذكرة واعتبارا لا مجرد حكاية كما يظنه الاغبياء وهذا اجمال تفصله العقول وتوضحه النقول — « ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيد »

﴿ هل امر الاسلام بالترقي ﴾

الكون مادة تتعاقب عليها الصور بالحركات المنبعثة فيها من مناط الحكمة والخير دائبة افعالها دائمة آثارها فلن تقف الشمس لحظة او تتواني الارض ثانية بل الكواكب أجمعها والارض وما عليها والاقمار والدوائر كلها في حركة مستمرة كان هذه العوالم تطلب اصلح الاوضاع وأجل الاشكال وأتم الجمال

هذا هو الكون وهذه آثاره فلو وقفت المجموعة الشمسية

لحظة واحدة عن الحركة لفسدت السموات والارض ومن فيهن وهكذا مجموعات الكواكب اذ بالوقوف لا تترقى فيفوت المقصد الاسنى فيفسد النظام (وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين)

ما الامم الا جزء من الكون حكمه حكم مجموعه فمتى قصرت امة في حركة النهوض زمناً ما رجعت القهقري بمقداره وما زاد فبحسابه جزاء وفاقا وعقاباً عدلا وميزانا — « ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها » بالنمو والارتقاء كالنبات والحيوان

علم الله ان للمسلمين يوماً يخرون فيه للاذقان امام الحوادث سجداً ويزيدون للامم خشوعا وخضوعا لما دهمهم من حروب التتار والصليب والاختلال والاختلال المتعاقب فأمرهم بان يتخذوا ذلك منذراً ومنبها للشعور العام ويستفيدوا منه كما يستفيد الحكماء من الحوادث (وما ارسلنا في قرية من نبي الا اخذنا اهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون)

افاد ان الحوادث تفيد النفوس تذكيراً والعقول تنويرا كما يذكر المرض الانسان بوجوب الاعتدال ولم يكتف

بالاجمال في البيان بل اخذ يهدي الى طرق العمل في آيات أخرى فقال (قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل) وعبر قوماً لم يعقلوا القول ولم يسيروا فيها لغرض شريف فقال (أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمي الابصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور)

اذ السير في الارض لا يقصد منه الا اعتبار احوال اهلها ضعة ورفعة ليحترس مما وقعوا فيه في الاولى كأهل الاندلس وكثير من بلاد الاسلام ويقتبس النافع ويجارون في الاعمال والصنائع كما في أوربا وأمريكا واليابان

وقال (قل انظروا ماذا في السموات والارض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون فهل ينتظرون الا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا اني معكم من المنتظرين)

وكأني بمن يقول أين الثريا واين الثرى واي نسبة بين الامة والنظر في السموات والارض وانما هذا جاء للتوحيد نقول له على رسلك أيها الاخ واصغ لما اقول

جاء دين الاسلام بنظام الدنيا والدين وكم أنذر وحذر

على ترك الاعمال النظامية من اقامة الموازين والمكاييل وحسن المعاملات بين النساء والرجال والاعتدال في الشهوات مما هو واضح لمن عقل القصص التي لا تخلو منها سورة وأكثر الانذار بالعذاب في الدنيا وخراب القرى لمن لم يعقل .

ولا ريب ان العمل بهذه سبب العمران وتركها سبب الهلاك كما هو اجماع علماء العمران وتارة يأمر بالنظر في السموات والارض للتوحيد والاعتبار بهما تارة من حيث مبدؤهما وتارة من حيث آثارهما وحوادثهما وأحوالهما

اطلع الغربيون على سر الكون وحوادثه فاستفادوا منه ما جهلناه من توالي الحوادث علينا وجهلنا من نحو سبعمائة سنة . نظروا الى الكون نظرة اهتدوا بها الى سياسة بلادهم وأخذهم بالاحس والاقوى فقالوا النبات الأقوى يبيد الاضعف . نبات أوربا يبيد نبات استراليا . الحيوان الاوربي يبيد الاسترالي ففأر الاولى أباد فأر الثانية وهرتها هرتها وخطافها خطافها وخيل الاسبانيين عند فتح أميركا حين ندت من العسكر وهي قليلة صارت الآن في سهولها ملايين متوحشة وأبادت الخيل القديمة وها نحن نرى الصناعة الجديدة أبادت

کتابخانهٔ مجلس شورای ملی ۱۳۰۲

كل صناعة قبلها في جميع الشرق وابادة الانسان الغربي للامريكي معلومة ووضع بعضهم بذوراً مختلفة القوى وكرر زرعها في مكان واحد وحصدها معاً مراراً فباد الاضعف بالتدريج كما تبيد الامم الخاملة أمام القوية فاستنتجوا هذه القواعد ١ الجديد يبيد القديم ٢ الطبيعة تستبقي الاحسن ٣ الانتخاب سنة في الكون ٤ الفروع ترث الاصول فهذا اعتبار الغربيين بعلم الطبيعة . فانظر كيف أثر على عقولهم حتى امتزجت هذه العقيدة بدمائهم فصارت طبيعة لازمة لهم حتى صارت أعمالهم تضارع سنة الكون فسارعوا الى الاخذ بالاحسن في كل شيء هذا هو الذي هدى اليه القرآن تارة صريحاً واخرى تلويحا وآونة اعتباراً فقال في الاولى « فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه اولئك الذين هداهم الله واولئك هم اولوا الالباب »

والقول في الآية يشمل امور الدين والدنيا جميعاً فانظر كيف بشرهم اولا وجعلهم من اولي الالباب آخرا . وقال في الثانية « قل سيروا في الارض فانظروا » « او لم يسيروا في الارض فينظروا » « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم

واهلها مصلحون ، وقال في الثانية (وكم من آية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون) « وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل افلا تعقلون » « وسكنتم في مساكن الذين ظلموا انفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الامثال » « ولقد اهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون » « ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون »

فياليت شعري كيف اعرضنا معاشر المسلمين عن هذه الآيات مع انها منطبقة علينا تمام الانطباق ولكن الحق والحق اقول ان الهمم متى ضعفت لم تفهم من العلم الا على مقدارها وكل اناء بما فيه ينضح

سئل بعض علماء الاسلام الاقدمين ما الذي تقرؤنه من الكتب فقال اربعة الكتاب المنزل من السماء وعلوم الرياضيات باجمعها وكتب الطبيعيات وكتاب هذا الكون المشاهد وما فيه من الآثار

كم ضرب القرآن للناس امثالا وملىء قصصاً واخبارا لنعتبر بالتاريخ حتى قال « لقد كان في قصصهم عبرة لاولي الالباب » فذكر فيها الهلاك على التقصير دفعة واحدة رمزا

الى الهلاك التدريجي البطيء في المسلمين اليوم فانظر كيف يقول « وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين » اشارة الى بقاء الامة العالمة العاملة وموت الجاهلة الكاسلة « فلما أحسوا بأسنا اذا هم منها يركضون لا تركضوا وارجعوا الى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسئلون » اشارة الى ان الامة الجاهلة المهضومة تتمنى الخروج من بلادها ولكن حب الوطن يسجل عليهم البقاء في الخزي « قالوا ياويلنا انا كنا ظالمين » هو ما يقوله الشرقيون في هذه الايام وندبهم لتفريط أسلافهم في مجتمعاتهم ومجالسهم . فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين » وهذا كله في القرية التي أريد اهلاكها والعياذ بالله تعالى كأهل اسبانيا المسلمين وأهل أمريكا الوثنيين

ما دمنا على هذه الحال خامدين خاملين فليست لنا دلائل على مبدأ حياة جديدة ولا ولادة من العدم الى الوجود فان طريقتنا في تحصيل العلوم والصنائع لم تزل رديئة لا توافق سنن الكون ولا القرآن ولا السنة

كيف لا ونحن أمرنا بان نأخذ بأحسن الاشياء فهانحن

تأخذ بأردئها بل اصبحنا لا نفرق بين الحسن والقبيح لفقدنا السياحات ومعرفة احوال الامم المعاصرة لنا والفنون الجميلة وهذا كله فرض كفاية على المسلمين ولنكتف بهذا الآن خيفة ملل القارئين من التطويل ونرجئ الكلام على السياحات وطرق التعليم الى فرصة اخرى

﴿ ترقى الامم بعلو الهمم ﴾

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت ايلام

الانسان ضعيف من حيث جسمه خلق من صلصال من حماء مسنون جبان اذ هو من الطين وانما يرفع نفسه من حضيض الهوان الى اوج السعادة والشرف شعوره بأن له نفساً هي اشرف مما على البسيطة من الماديات فلا يخضع ولا يذل بل يعلم انه اشرف ما في الكون من جماد وحيوان ونبات واذا تيقن ذلك فلا محيص له من التعالي والكبرياء عن الخضوع والتسليم والجهل . والى الاول الاشارة بآية (وخلق الانسان ضعيفاً) والى الثاني الرمز بقوله (فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين)

الانسان بين عاملين قويين يتجاذبانه جسم يهوي به الى الحضيض وروح ترفعه الى ذرى العلياء

أجهل الناس من جهل قدر نفسه فاهانها وحط بشرفها فدنسها (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم)

اقوى شاهد واعدل ناقد على صدق ما قلنا دلالة التاريخ في القرون الاولى

خضع بنو اسرائيل لفراعنة مصر فيما بين الاسرة الخامسة عشرة والتاسعة عشرة وقد نزحوا اليها من كنعان ازمان ملوك الهكسوس (الملوك الرعاة الحميريين) ولما اخرج المصريون الرعاة ذل بنو اسرائيل ذلا عظيما حتى قتلوا ابناءهم واستحيوا نساءهم واعظم به من ذل . جاء هؤلاء الاذلاء النبي موسى عليه السلام واخوه هارون فجاءا بشرع يحكمانهم به ومما ورد فيه (واني فضلتكم على العالمين)

ذكرهاموسى لقومه واكثر ذكرها وكررت في القرآن في غير سورة ذكرى لقوم يعقلون وتنبيهاً لنفوس غافلة وامم خاملة وهذه وايم الله هي الحكمة في تكرارها في تلاوته على بني الاسلام

اراهم موسى انهم اشرف العالمين فتيقظت نفوسهم من نوم الغفلة واستشرفت للخلاص من قفص الاستعباد والجهالة وطلبوا الحرية والاستقلال وكان ما كان من خروجهم وضلوا تائهين في مهامه الجهل اربعين سنة حتى تربى جيل جديد ونشأة حديثة نسيت الاستعباد والذل والفت الحرية في البادية وتلوا (واني فضلتكم على العالمين)

حينئذ عرف بنو اسرائيل قدر انفسهم فاستعدوا للملك والعزة والشرف وان سيسيطروا على الامم (واذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم انبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت احداً من العالمين يا قوم ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على ادباركم فتنقلبوا خاسرين)

هذه سياسة الله في بني اسرائيل على لسان موسى عرفهم اولا قدر نفوسهم بذكر فضلهم فخرجوا من الاستعباد ورضوا بهجر الاوطان وشمخوا بنفوسهم الى سماء العظمة ثم سماهم ملوكا في الاستقلال والحرية واستثمر ما غرست يداه فامرهم بالحرب فحاربوا وانتصروا وحكموا قرونا نحو الف ومائتين من السنين

هذه سياسة الله في بني اسرائيل لم تذكر في القرآن لمجرد التلاوة او الحفظ وانما هي ذكرى لقوم يعقلون

مضت قرون وتلتها سنون وجاء النبيون وخاتمهم فكانت السياسة المنزلة عليه من ربه كسياسة موسى وأخيه هارون فجاء في القرآن (كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) (وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا)

ولم يكتف بالاجمال في المقال بل زاد فقال (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا)

كان ذلك كله ليبعث روح النشاط في النفوس والثبات في القلوب اذ لا رجال الا بالعزائم ولا عزائم الا بنفوس قوية وقوتها انما تكون بمعرفة شرفها وان لها مبدعا ابدعها وفاطراً فطرها وهاهو يعدهم الملك في الدنيا والرضاء في الآخرة فكيف لا يقوون ام كيف لا يعلون

لذلك اخبر الوحي رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر

بما اعد له من النصر وما وعد من الخير وما انزل له من الملائكة وسمع المؤمنون ما تلاه عليهم مما جاء به الوحي (اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم اني ممدكم بألف من الملائكة مردفين وما جعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر الا من عند الله ان الله عزيز حكيم) ذكر في هذه الآية حكمة اخبارهم بالنصر وانه يريد بشراهم وطمأنينتهم وتوكلهم عليه وهو أدعى الى قوة العزيمة فان العامل اذا أيقن بان معه قاهر الكون رفعته تلك الفكرة وجعلته اقوى الناس وأقدرهم على صعاب الامور لا كما يظنه المنتكسون الجاهلون الكسالى البائسون اليائسون من روح الله (انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون)

فجعلوا التوكل ذريعة الى البطالة فباؤا بغضب على غضب

مضت قرون تبعتها اخرى وجاء الغربيون وعلموا انهم لا تقوم جامعتهم الا بتلك الفكرة وبثها بين افرادهم فبث المعلمون في نفوسهم انكم اشرف الامم واقواها وارفعها مجداً وشرفا فيقول الاستعماريون اجعلوا نفوسكم ارقى ممن تقودونهم

وتتولون امرهم والمحاربون امتنا اشرف الامم فلا تراق دماؤها الا لاشرف المطالب

وقال بسمارك في احدى خطبه (نحن الالمانيين لا نخشى الا الله) فما كاد ينطق بها حتى تلقفتها الجرائد واصبحت مكتوبة على الالواح في البيوت والطرقات منقوشة على القلوب محفوظة في الصدور

نرى كل فرد من الغربيين معتمداً على نفسه جاعلاً اياها ملكا حراً مطاعا سيداً هماما كما قال موسى لقومه (وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت احدا من العالمين)

هذه هي السياسة العامة في الكون من القرون الاولى الى الآن وهذا تاريخها ما بين ارباب الاديان والسياسيين والعقلاء

لعمري لن تنشط امة من عقالها او تقوم من رقدتها او تستيقظ من غفلتها الا بباعث يبعثها ومنبه ينبهها كذكر مجد اسلافهم وتقليدهم في اعمالهم وافهامها ان لهم استعدادا للكمال ورجائهم الخير وتوسمهم اقبال الزمان وتبسم الدهر في وجوههم ويدخل تحت هذا علم تاريخ الامة وذكر رجالها وقراءة دينها

وتميزها عن غيرها بالمفاخر . فكل هذا من دواعي الحمية والنجدة وشرف النفس

هذا مما يموج به خضم القرآن مما به ارتقاء الامم وسعادتها ولولا غفلتنا أزمنة متطاولة عنه ما أصبحنا صاغرين في الذل والهوان

كم في غضون هذا الكتاب من حكم رمزية غفل عنها عقلاؤنا في الاعصر الاخيرة (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم انا عاملون)

القسم الثاني

﴿ نموذج في فهم كيفية قصص القرآن ﴾

(التربية والآداب في قصص القرآن)

طال الامر على أمتنا فأهملت ما في غضون كتابها من أساس التربية والحكمة وكيف تنتقي الرجال الاكفاء في مهام الاعمال

ياليت شعري ما الذي أصابها حتى غضت النظر عن القصص التي قصها وأهملت أمرها وظن أهلها انها أمور تاريخية لا تفيد الا المؤرخين

القصص في كل أمة عليها مدار ارتقائها سواء كانت وضعية أم حقيقية على ألسنة الحيوان أو الانسان أو الجماد على هذا تبحث الامم قديمها وحديثها وناهيك بكتاب (كليله ودمنه) وما والاه من القصص الناسجة على منواله في الاسلام ككتاب فاكهة الخلفاء ومقامات الحريري وان حاد بعضها عن سواء الصراط والجادة وطغى نخلط الجد بالهزل ككتاب ألف ليلة وليلة الذي استخلص زبدته الغربيون كل يعلم ما صنعت الروايات في عقول الغربيين من التأثير وأخذهم منها بالاحسن من الكلام والاجمل من الافعال وكيف يسمعون ويعقلون

جاء القرآن بقصص الانبياء وهي لا جرم أعلى منالا وأشرف مزية كيف لا وقد جمعت أحسن الاسلوب . واختيار المقامات المناسبة لما سيقت اليه . والقدوة الحسنة للكمل المخلصين من الانبياء ومن والاهم . وتحققها في أنفسها لوقوع

مواردها. وان حب التشبه طبيعة مرتكزة في الانسان لا سيما لمن يقتدي بهم . فهذه خمس مزايا اختصت بها هذه القصص ونقصت في سواها ككتاب كليله ودمنه منتق كتب الهند وترجمة الفرس والاسلام جاء على ألسنة الحيوانات وقد نقصه تحقق موارده والروايات المنتشرة في الغرب أكثر ايهاماً لوقوع مواردها اختلط فيها صادق الحكم بكاذب الوقائع اصطفاها القوم لانفسهم لما تضمنته من النصائح في بواطنها على زخرف ظاهرها وقصصها الكاذب

اليس من العيب الفاضح ان نقرأ قصص القرآن فلا نكاد نفهم الا حكايات ذهبت مع الزمان ومرت كامس الدابر — وما لنا ولها اذن . — تالله ان هذا لهو البوار . وما نحن الا كما حكي في هذه الايام عن فلاح بويري فقير بنى منزله الحقير من حمأ مسنون مرصع بقطع من الماس الجميل المقدر بمئات الالوف من الجنيهات جهلها الرجل وعرفها سائح أوربي فكان ذلك من اهم الاكتشاف في تلك الاقطار . كم من فتى يسمع هذه القصص فيقول في نفسه تارة وعلى الملأ أخرى — ياليت شعري كيف توافق التاريخ وهل

الاكتشافات التاريخية والمباحث العصرية والعلوم المكتشفة في الاهرام والبرابي والهيلوغريف تؤيده ويظل يبحث عن ذلك حتى يقف باهتاً منده شا وقد يعثر على قول فلان الفرنسي والانجليزي مما يؤيد هذه المباحث فيطير بها فرحاً ويظن ان هذا مستند للدين وفاته انه ان وافقه كتاب فقد يخالفه كتب اذ لا ثبات للمؤرخين فيما يصفون عن دهر الدهاريز

لعمر العلم م يكن هذا الا للجهل بالمقصود من قصصها وانها عبرة لمن اعتبر وتذكرة لمن تفكر وتبصرة لمن ازدجر

أما الرجوع الى التاريخ ومقارنته بما قصه المؤرخون في كتبهم وما سطره الاقدمون على مبانيهم وما يقوله القاصون في خرافاتهم فذلك سبيل حائد عن الجادة يضل فيه الماهرون . يرشدك لذلك ما تسمعه من نبأ فتية الكهف وكيف يقول (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل)

فانظر كيف أسند العلم لله ولم يعول على قول المؤرخين المختلفين ثم لم يبين الحقيقة لئلا يكون ذريعة للطعن في التنزيل

فان قال خمسة قالوا ستة وان قال أربعة قالوا سبعة فكتب المؤرخين كثيرة الاختلاف في القصص وما المقصود منها . وليكون عبرة

وبالاجمال فليس القصد من هذه القصص الا منافعها والعبر المبصرة للسامعين و (لقد كان في قصصهم عبرة لاولي الالباب)

ولسنا ممن يتبجح بالقول بلا بيان فلا نعتمد الا على البرهان تأمل ياصاح هذا القصص تجده لا يذكر الا ما يناسب الارشاد والنصح ويعرض عن كثير من الوقائع اذ لا لزوم لها ولا معول عليها فلا ترى قصة الا وفيها توحيد وعلم ومكارم أخلاق وحجج عقلية وتبصرة وتذكرة ومحاورات جميلة تلذ العقلاء . ولاقتصر من تلك القصص على ما حكاه عن النبي يوسف الصديق عليه السلام وكيف جاوز فيها كل ما لا علاقة له بالاخلاق من مدنية المصريين وأحوالهم الى الخلاصة والثمرة

ألا ترى رعاك الله كيف صدرت بحديث سجود الشمس والقمر والكواكب له في الرؤيا دلالة على ان للطفل استعدادا يظهر على ملامحه وأقواله وأفعاله ورؤياه . — وهذا أعظم شيء

اعتنى به قدماء الحكماء من اليونان والفرس كما ذكره المؤرخون وعلماء الاخلاق كانوا يختبرون أبناءهم ويتأملون ملامحهم ليعرفوا ما استعدوا له من الصناعات والرئاسات والعلوم

ثم تأمل في قصة الاخوة وحديث القميص والجب والذئب والدم لتعلم ما نشاهده كل يوم من معاداة الاقران لمن ظهرت مبادئ الجمال النفسي والخلق المرضي والجلال الظاهر على ملامحه فيعيبونه بما يشينه في نفسه أو عرضه أو خلقه دلالة على ان هذه سنة في الكون لا تغادر نبياً ولا حكيما ولا عالما مهما حسنت أخلاقه وجمل ظاهره وباطنه

كل العداوات قد ترجى ازالتها
الا عداوة من عاداك عن حسد

جرت تلك السنة في الاناسي فاذا صبر الصالح فازبالولاية عليهم وأحبوه بعد العداوة ولو بعد حين وعادوا من آذاه

ثم انظر في حديث قصة امرأة العزيز وكيف عف مع الشباب وكيف ساس نفسه وصدق ظن مولاه في الامانة وأرضى الهه واتسم بالفضيلة فتوازى جماله الباطني والظاهري ولنكتف بهذا القدر الآن ونرجئ الكلام على الآداب

والاخلاق وتربية الامراء والعفو والصفح التي تضمنتها تلك القصة في الفصل الآتي

﴿ علم الاخلاق وتربية رؤساء الامم ﴾

(من قصة يوسف عليه السلام)

تأمل ياصاح في كلام الحكماء أولهم وآخرهم تجد اجماعهم على أن سياسة أخلاق النفس أولا فالمنزل فالمدنية وكل واحدة مقدمة للاحقتها ثمرة لسابقتها اذ لا يعقل أن يسوس منزله من لم يسس نفسه أو يسوس أمته من لم يدبر ادارة منزله

بايع الصحابة عليهم رضوان الله الخليفة الاول فأخذ قماشا وذراعاً وذهب الى السوق في الغداة فاستاء الصحابة ولاموه فقال اذا أضعت أهلي فأنا للمسلمين أضيع ففرضوا له دريهمات من بيت المال فقال اذن أنظر في شؤونكم

لذلك نجد الغربيين اذا ولوا رجلا ادارة بلادهم أكثروا السؤال عن قرينته وادارة منزله علما منهم ان منزله أقرب اليه من الامة

فانظر هذه الحقائق من سيرة النبي يوسف الصديق كيف

ذكرت في الكتب السماوية ورتبت في القرآن ترتيباً محكما ذكرت فيها السياسات الثلاث مرتبة هكذا - النفس - فالمنزل فالمدنية . ترتيباً طبيعياً تنبيهاً لبني الاسلام على معرفة هذا العلم وانتقائهم الاكفاء للاعمال العامة . فأشير فيها التربية الاخلاق الفاضلة بالعفة في عنفوان الشباب مع الصدق . وياليت شعري كيف حفظ أخلاق آبائه وقومه والانبياء في وسط مدنية المصريين وزخرفهم وجمالهم وعبد الله وحده ونسي ما يراه من أبي الهول وأبيس والارباب المتفرقة

ذكرت هذه تبصرة لمن أحاطت بهم أمواج الحدثان من كل جانب ان يحافظوا على أصول دينهم وقواعده ثم ليفعلوا ما يشاؤون في أمور دنياهم

ظهر صدق يوسف في أخلاقه الشخصية فلم يكن ذلك كافياً لادارة أموره العامة فأودع السجن وأحيط بالاحداث والجهلة من كل جانب فأخذ يسوسهم كما يسوس الرجل أهل منزله وبث عقيدته بينهم ظاهراً بمظهر الكمال والاحسان والعطف عليهم ، قال لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قبل ان يأتيكما ذلكما مما علمني ربي ، وأخذ يقص عليهم سيرة

أسلافه وحبه لمذهبهم وبغضه لاصنام المصريين ونحوهم فقال « اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحاق ويعقوب » الآية

ثم أخذيذكرهم أن تفرق وجهة الامة ضلال في السياسة وان توحيد وجهتها كياسة فيها فقال (يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) فتفريق الوجهة شتات الجامعة لم تسد أمة في الوجود الا برجال يوحدون وجهتها أيا كانت فيؤمنون مقصداً واحدا والتفصيل لا يخفى على أولي الالباب وفي آراء أهل المدنية الفاضلة للفارابي اثنتا عشرة جامعة بكل منهن قوم اتحدت بها كاللغة والوطن والدين والاخلاق والجنس والحكيم المرشد والاب الاكبر ونحو ذلك مما تمتاز به أمة أو جماعة

ولما تم له عليه السلام الامران سياسة النفس والعشيرة أخرج من السجن معظما مبجلاً وترقى من تعليم الصعلوك في السجن الى تعليم الملوك على العروش وأخذ يريهم كيف يقتصدون في الاموال وعبر لهم السنبلات الخضر واليابسات والبقرات السمان والعجاف وأرشدهم الى خزن البر في سنابله لئلا يفسد وغير

ذلك من الامور العامة وهذه هي المرتبة الثالثة سياسة الامة بأجمعها بعد قطع تينك العقبتين والبراعة والكياسة في علوم العمران . وتدبير أمر الامة اما بوحي وهذا خاص به وبأمثاله من الانبياء عليهم السلام وأما بتعليم وتدريب وهو اللائق بسائر الناس

ترشد هذه السيرة الشريفة الى ان الاخلاق الفاضلة ما تثبت عليها النفس مع الحقير والعظيم والصغير والكبير وان الانسان لا يستحقر تعليم الاصاغر فانه لا بد يوماً ما ان يصل الى الاكابر كما في حديث هرقل مع أبي سفيان وتعليم الصديق من في السجن فبلغ صاحب السجن فرعون المصريين

ابتلى هذا النبي بالسراء والضراء فلم تتغير أخلاقه وكان نموذج الكمال في سعة بيت الملك والجلال وموضع الثقة في ضيق قبر السجن وعشرة الاسافل التي تتغير بها الاخلاق وتنسى بها أصول الاعراق وتنزل الكامل عن عروش الفضيلة الى أسفل مقاعد الرذيلة ومن أوج الكمال الى حضيض النقص

وهذه قصة يوسف النبي تربى في مصر ونشأ فيها ولم

تهجه زخارف تلك المدنية الى الرذيلة جاءت عبرة للناس كافة والى المصريين خاصة

بهذه الاخلاق وأيم الادب اعتلى يوسف عرش العظمة والجلال فساس مصر بعد ان كان مسوسا وملك بعد ان كان مملوكاً هي الاخلاق هي الاخلاق الله أكبر عبرة ومائة عبرة وألف عبرة لمن اقتنصتهم أمم ودخلوا في حوزتهم ان لا ييأسوا من روح الله ذلك انهم لن ينالهم ما نال يوسف من التضييق ومتى حاولوا الصدق في الاعمال مع الثبات على الاخلاق الفاضلة لم يفتهم يوماً شرفهم بين أولئك القابضين على زمامهم وان يعرفوا فضلهم تلك وأيم العلم والادب سنة الكون غابرة وحاضرة لا يضيع العرف بين الله والناس ولا شيء في الوجود معطل

ليس الجزاء على الاخلاق والكمال خاصاً بالآخرة بل في الدارين « وكذلك مكنا ليوسف في الارض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون »

هذه هي الاخلاق الفاضلة ذكرت في التنزيل نموذجا في غضون هذه السيرة للامم الاسلامية ليأخذوا ثمرتها ولا

يضيعوا الزمن في أصلها وموردها في التاريخ كما يجمد المفسر على الاعراب أو الصرف أو البلاغة وهذا غيض من فيض من حكم هذه القصة وبها نفهم ما ذكر في أولها « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن »

﴿ مكارم الاخلاق ويوسف النبي عليه السلام ﴾

(والمصريون)

قد سمعت أيها الاخ بعض ما في هذه السيرة من الحكم وما أودعت من الفضائل ثم انظر كيف اختارها المصريون في أفراحهم ومآتمهم يقرؤونها وأيم الادب تغنيا ورجوعاً عن الفضيلة النفيسة الى مجرد سماع الاغاني والطرب ألم يعلموا انهم أحق الناس بالاعتناء بها اذ هي سيرة نبي تربى في بلدهم وقد جاء في آخر قصته (وكم من آية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون)

ياليتنا أعرضنا وحسبنا ولكن اتخذناها هزؤاً ولعبا

لعمري اذا لم يكن لبني الاسلام من ذلك الا حظ الجائع من النسيم فما الحكمة اذاً فيها عندهم

ضل من وقف وقوف ذليل العير على معشجوج الوتد فيقرؤن ظاهر الالفاظ وهم عن آياتها معرضون

نفوس الاسافل تأخذ الحكمة فترجعها من أفق سمائها الى أرض ضعتها كما يصير الماء في شجرة الحنظل مرا فيقصدها هذا للتنغمات وذلك لقصة بسيطة وآخر تسلية وتضييعاً للزمن وآخر يقف عند الالفاظ واعرابها وصرفها وبلاغتها ولكن هذا أرقى ممن قبله فقد سار في الطريق وهي الالفاظ ولكن هيهات ان يصل للمقصود والثمرات فان أعد تلك القواعد مقدمة للمقصود وبحث فيه فياحبذا . وآخرون يسمعون الآيات فيعرضونها على التاريخ والمؤرخون مختلفون كما قدمنا وما مثل هؤلاء في سيرهم الا كمثل رجل اوتى آلة بخارية يستقي بها الحرث من النهر فجلس بجانبها وترك استعمالها واخذ يتفكر من اين هذا الحديد ولم يجلب الماء والى اي مسافة يرتفع وما العلة فيه ومن أين يأتي الفحم الحجري وفي أي الطرق يسير الى ان يصل الينا فيمر عليه شهر وشهران فيذبل زرعه وتبور أرضه ذلك مثل من يقرأ القرآن ويجعل جل عنايته تطبيقه على كلام المؤرخين او قواعد النحويين أو

الصرفيين وعلماء البلاغة فحسب اللهم الا قدراً يسيراً للفهم وهذا لعمر الله انتكاس على الرأس واتخاذ الوسيلة مقصداً كمثل من أراد الحج فجعل همته في اعداد الذخائر سنين فاختطفته المنون وفارق الحياة ولم يحج ذلك مثلهم

زرت المكتبة الخديوية يوماً فرأيت تلميذاً أعرفه يقرأ في الاحياء فقلت له (صرحي) ثم مررت يوماً آخر فرأيته يقرأ في كتاب بلغة أوربية فسألته ما الذي تقرأه فأسمعني عبارات تطعن على بعض القصص وانها لم توافق قول المستر فلان فضحكت عجباً وقلت يا سبحان الله كيف يتفق اجماع المؤرخين على قول واحد وأفهمته ما قلناه آنفا من ان ذلك ليس مطمح نظر القرآن ولقد أبهم في كثير من المواضيع تسكيناً لوسواس النفوس وانكم مما بأن المقصود ثمرات القصص ونتائجها واجماع المؤرخين مستحيل عادة ثم قلت هذا خروج عن المقصود بهذه العبر وأشنع من هذا وأعظم اثماً وذنباً من يسمع مثل هذا المقال فيمثله ويحضر الناس ليروا نبي الله مع آخرين

ذلك هو السخرية الفاضحة والجهالة الواضحة لقد أغضبوا

بذلك الكتب المقدسة الثلاثة التوراة والانجيل والفرقان أي والله كيف غفلنا عن ذلك كله ورجعنا في علومنا وأعمالنا القهقري

دعني ياسيدي من قول الجاهلين وفهم المنتكسين واترك المعربين الواقفين على قشور الالفاظ وتجاوز خلط المؤرخين واختلافهم وتخبطهم واصغ الى ما في قصة الصديق من هيئة تربية الحكام والامراء كما أشرنا آنفاً واوضحنا تارة ولوحنا اخرى ولنزدك بيانا

قال علماء الاخلاق والحكماء لا ينتظم امر الامة الا بمصلحين ورجال اعمال قائمين وفضلاء مرشدين هادين لهم شروط معلومة واخلاق معهودة فان كان القائم بالاعمال نبياً فله اربعون خصلة ذكروها كلها آداب وفضائل بها يسوس امته وان كان غير رئيساً فاضلاً لمدنية فاضلة اكتفوا من الشروط الاربعين ببعضها وسيدنا يوسف الصديق عليه السلام وعلى نبينا حاز من كمال المرسلين وجمال النبيين ولقد جاء في سيرته التي نحن في ذكرها ما يتخذه عقلاء الامم هدى لاختيار الاكفاء في مهام الاعمال اذ قد حاز الملك والنبوة ونحن لا قبل لنا بالنبوة لانقطاعها وانما نذكر ما يليق بمقام رئاسة

المدنية الفاضلة ولنذكر منها ثلاث عشرة خصلة هي اهم خصال رئيس المدنية الفاضلة لتكون ذكرى لمن يتفكر في القرآن وتنبيهاً للمتعلمين العاشقين للفضائل على نفائس الكتاب العظيم وحباً في نظرهم في القرآن وليعلموا ان تلك القصص قد اودعت ما لم يكن ليخطر على بال من سمعه للتغني به ومجرد اللهو واللعب

اهم ما شرطه الحكماء في رئيس المدنية الفاضلة

١ العفة عن الشهوات ليضبط نفسه وتتوفر قوته النفسية « كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين »

٢ الحلم عند الغضب ليضبط نفسه « قالوا ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم »

٣ وضع اللين في موضعه والشدة في موضعها « ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون اني أوف الكيل وأنا خير المنزلين فان لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون » الصدر للين والعجز للشدة .

٤ ثقته بنفسه « اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم »

٥ قوة الذاكرة ليمكنه تذكر ما غاب ومضى له سنون

ليضبط السياسات ويعرف للناس أعمالهم » وجاء اخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون »

٦ جودة المصورة والقوة المخيلة حتى تأتي بالاشياء تامة الوضوح « اني رأيت احدعشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين »

٧ استعداده للعلم وحبه له وتمكنه منه (واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحق ويعقوب ما كان لنا ان نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون) (ولما بلغ أشده آتيناه حكماوعلما وكذلك نجزي المحسنين) (رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث) الآية .

٨ شفقته على الضعفاء وتواضعه مع جلال قدره وعلو منصبه فخاطب الفتيين المسجونين بالتواضع فقال (يا صاحبي السجن) الآية وحادثهما في أمور دنياهما ودينهما . فالاول بقوله تعالى (لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله) والثاني بقوله « اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله » الآية وشهد له بقولهما « انا نراك من المحسنين »

٩ العفو مع القدرة « قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين »

١٠ اكرام العشيرة (وائتوني بأهلكم أجمعين)

١١ قوة البيان والفصاحة بتعبيره رؤيا الملك واقتداره على الاخذ بأفئدة الراعي والرعية والملوك والسوقة ما كان هذا الا بالفصاحة المبنية على العلم والحكمة (فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين أمين)

١٢ حسن التدبير « فما حصدتم فذروه في سنبله الا قليلا مما تأكلون ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما أقدمتم لهن الا قليلا مما تحصنون »

---

١٣ ﴿ تأمل في اقتدار يوسف النبي عليه السلام ﴾

على سياسة الملك وكيف اجتذب اليه القلوب بالاحسان

« وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها اذا انقلبوا الى أهلهم لعلهم يرجعون » ودبر الحيلة العجيبة بمسئلة الصواع والاتهام بالسرقة ليضم أخاه اليه (فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه) وعامل المحكومين

بشرعهم ودينهم وملتهم وعادتهم كما عليه جميع الامم الشرقية الحية من الرفق بالامة المحكومة لهم فيسوسونهم بدينهم وعادتهم وشرعهم وأخلاقهم وأموالهم اتباعا لما رسمته الشريعة الغراء مما يناسب حكم سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام وذلك انه امر اتباعه ان يسألوهم « قالوا فما جزاؤه ان كنتم كاذبين قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين » فكانت شريعة بني يعقوب ان يستعبد السارق سنة عند صاحب المتاع فعاملهم بما هم عليه ولذلك يقول الله (ما كان ليأخذ اخاه في دين الملك الا ان يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم) امتدح على حسن خطته في السياسة ومراعاته عادة اولئك القوم وهذه وان كانت مسئلة بسيطة الظاهر فهي ام السياسة وراس علوم العمران واول ما يوصى به السواس والعقلاء

تالله ما اجمل القرآن وما ابهج العلم - وياليت شعري كيف يقول الله بعدها (نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم) ولولا ما فيها من مبدأ شريف وحكم عالية مع وضوحها وبساطتها لذوي النظر السطحي والبله الغفل ما اعطاها هذا الجلال والاعظام ومدح العلم فحيا الله العلم وادام دولته

ومن العجيب الغريب تدبير هذه الحيلة باخفاء الصواع ثم نظر امتعتهم جميعاً (فبدأ باوعيتهم قبل وعاء اخيه ثم استخرجها من وعاء اخيه)

وهذه وايم الله هي بعينها ما يصنعه ملوك الارض قاطبة اليوم من السياسات والتلطف في الامور الخفية والباسها البسة مختلفة لسياسة بلادهم وطلباً لحصول المقاصد النافعة ودخولا للبيوت من ابوابها ولكن بينهم وبين هذا النبي بون بعيد

فانظر كيف تعطى هذه القصة هذه الامور العجيبة

لعمري ان من طالع ما امليناه بامعان عن هذه القصة يتخيل عند تلاوتها انه مشاهد اعمال الامم الحاضرة والغابرة وكانما طالع آراء اهل المدنية الفاضلة وعرف الحكماء وسواس الامم وشاهد جمال العلم والادب والحكمة والموعظة الحسنة حتى يعلم علم اليقين كيف يقول الله في اول السورة « نحن نقص عليك احسن القصص بما اوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين » ويقول في آخرها (ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك) ويقول (قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني وسبحان الله وما انا من المشركين)

ثم ذكر ان الانسان لا ينبغي له ان ييأس من روح الله فقال (حتى اذا استيأس الرسل وظنوا انهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين)

ثم افاد ان المقصود هو العبر والنظر لتاثير القصص وثمراتها لا مجرد تفسيرها اذ مجرد التفسير امر بسيط يقنع به البسطاء وانما المقصد هو الاتعاظ والاعتبار فقال (لقد كان في قصصهم عبرة لاولى الالباب ما كان حديثاً يفترى) الآية

وهذه لعمرك ترشدك ايها السيد ان كنت من ذوي الهمة العالية ان تصير نفسك مع الذين يتعلمون امدا طويلا ولا تعجل بالوظائف حتى يبلغ الكتاب اجله وتنال حظاً وافرا من الاخلاق والعلوم فلا بأس بالوظائف ونفع الامة مع دوام المثابرة على العلم والاستزادة منه فلقد صبر هذا النبي عليه السلام اياماً واياماً ولبس للحوادث اثواباً واثواباً حتى اذا غلب الياس جاء الفرج والرفعة .

ولم ار في عيوب الناس عيباً
كنقص القادرين على التمام

فتامل كيف كانت هذه السورة يقرؤها القارئون

ويسمعها الجاهلون وهم عن آياتها معرضون فاذا سمعوا صوتا حسنا ظنوا ان هذا هو جمال القرآن فقالوا للقارئ سبحان من اعطاك وفرحوا بما عندهم من العلم بظواهر ورونق القراءة او مجرد التفسير ومعرفة القصة ولم ينظروا الى الحكم المودعة فيها — فياقبح الله الجهل — يترك الرجل اعمى وان لبس الحلل وتردى ثياب الفخار الكاذب والسراب الخادع كم للانسان من آيات وعبر في السموات والارض فيعرض عنها

خلقت لنا الابصار والاسماع والعقول لننظر ما ذا في السموات والارض مما ذرأ المبدع في الكون وترك الاقدمون آثاراً لهم لتنبئ من بعدهم كما فعل قدماء المصريين من الاهرام فجهلنا نحن هذا كله وأعرضنا عن كل شئ سبقنا الغربيون اليه

وتلى القرآن وهو كلام مبدع الكون وتلطف في تصوير المعاني والبسها أجمل لباس فأعرض العقلاء فضلا عن العامة فما للعامة لا يتعلمون وما لذوي البصائر لا ينصحون ولا يبينون وما للناس لا يكادون يفقهون . ولقد ذكرت نموذجا عن هذه السورة استنشاطا لهمم العقلاء وحثا لمن لهم ذكاء وفطن وعقول راجحة على الرجوع الى كتابهم ونظرهم فيه وازالة لشبه

من ارتاب في هـذه القصص فأعرض ولقد اوضحت تارة وأجملت أخرى ايجازاً في القول وترغيباً للشبيبة

﴿ كيف تخدم مصر اذا فهمت هذه السورة [1] ﴾

هذا الوجود اسباب ومسببات ونتائج ومقدمات سواء في ذلك العناصر والمركبات والعلوم والديانات ومنها القرآن فلقد أنزل للاعتبار وقرئ للادكار واكثر المسلمين لا يقرأونه الا وهم غافلون ولا يسمعونه الا وهم لاهون لا يعلمون الا ظاهرا من الامر والنهي والوعد والوعيد . والعظة والمثل وهم عن عجائب القصص معرضون

في القرآن قصص تسرد وقائع الانبياء وفضائل الاولياء وعجائب اعمالهم وغرائب احوالهم لنقيس المشاهد المنظور على الغائب المستور والحاضر الظاهر على الغائب الفائت

غفل الناس عن ذلك كله ايما غفلة وناموا على وساد الراحة

(١) هذه منقولة مما كتبه المؤلف في مجلة الملاجئ العباسية تحريضا للمصريين على حفظ الطيور فاصدرت الحكومة امرا بمنع الصيد عقب ذلك والمؤلف لا يزال في اسف لجهل اهل البلاد لصيد الطيور

ومهاد الغفلة حتى اصبح المسلمون في انحاء المعمورة يمتازون بانهم مسبوقون في المدنيـة والعمران جاهلون بالمنافع المادية والمعنوية خاضعون للظالمين مقلدون والمقلد جاهل والجاهل غافل والغافلون هم الهالكون

ما عذب المسلمين ولا ازاحهم عن مكانهم السامي الذي خوله الله لهم من الشرف العميم والفضل العظيم الا القصاصون المخرفون وادعياء العلم وما اكثرهم وهم ضالون مضلون بما يفترونه على الله عز وجل باسم الدين والدين بريء مما يقولون .

فعلى قادة الامة الاسلاميـة ان يدخلوا البيت من بابه ويدعوا المسلمين للعلم بطريق الدين كما اخرجوا منه بطريق الدين فبالدين (ادعاء) أخرجوا وبالدين (تحقيقا) يدخلون

ولما كان القصص مهجور المعاني عند الناس وكان احسنها قصة يوسف عليـه السلام اردت ان اذكر نبذة صالحة هنا فوق ما اوضحته في كتاب النظام والاسلام [1] وما اودعته فيه من عجائب التنزيل وبدائع القرآن فاقول ان لهـذه السورة لمزية

(١) اي في الطبعة الاولى فهي خالية من هذه لانها انما جاءت فيما بعد بنحو ٩ سنين

خاصة بالمصريين فلذلك يقرأونها في محال مآتمهم واعراسهم ولن تجلس مجلس قرآن الا وتسمع القارئ يتونم بآياتها ويترنح بكلماتها والناس له سامعون وبصوته طربون ان كان من المحسنين

الا انما يطرب الانسان لما يهواه ويفرح بما يوافق هواه

فيا عجبا كيف يفرحون بها ويطربون لها أكلماتها البديعة أم لمعانيها العجيبة

ان فيها لحكماً وعبراً وعلوما لو كشف عنها الغطا وأدرك المصريون سرها لكانوا ارقى العالمين في الدنيا والدين . ان فيها لسياسة المنزل وسياسة الشخص وسياسة المدينة . سياسات ثلاث انتظمتها سورة يوسف ففيها نصف علم الحكمة وهي الحكمة العملية الداعية لسعادة الاشخاص ولسعادة المنازل ولسعادة المدن فهل لهذا طرب السامعون ؟ كلا . وانما يطربون لجواهر الالفاظ ولبصيص من المعاني العالية ولو انهم ادركوا ما سنوضحه من العجائب اليوسفية ما أغمضوا الجفن ولنأت جنوبهم عن مضاجع الكسل ولربأوا بانفسهم ان ترعى مع الهمل وما استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير ولسوف يعلمون المعنى فيما نقول ولينظرن الله ماذا يفعلون

الا انما مثلهم اليوم في ترنمهم بها واقبالهم عليها وغرامهم بها كمثل أولئك الذين يدعون انهم يعلمون الغيب بالخط في الرمل وما لهم بالغيب من علم وانما هي الفطرة الانسانية والحكمة الربانية اكبتهم عليه وان كانوا لا يشعرون . كأن الحكمة الالهية تقول لاولئك الجاهلين يا ايها الناس ان في الرمل لعلوما ستدركونها واسرارا ستعلمونها ثم صنع منه المنظار المعظم والمقرب فكشف ادق الدقائق في الحيوان والنبات وظهرت للعين بعض النجوم الثوابت وسائر السيارات

فهكذا في سورة يوسف الاشارة لعلوم الاخلاق ولنظام المدن فاغرم الناس بها واكثرهم لا يعلمون من مقاصدها الا ما يعلم الدجالون من عجائب الرمل ومثل الناس ايضا في غرامهم بها كمثل ذلك الذي يدعي انه يعلم علم جابر ويستخرج الذهب والفضة بالكيمياء وما له بذلك من علم ان يتبع الا الظن ولكن الله اودع ذلك في قلوب طائفة من عباده توارثوه اجيالا حتى اتاح الله للناس من فهم الرمز وقاموا بالامر وشرحوا علم الكيمياء . ونقلوه من الظلمة الى النور ورفع المدنية ورقي الزراعة والصناعة والتجارة ودخل في سائر ابواب

الحياة فاصبحت الارض كلها تنبت ما هو انفع من الذهب وسائر المعادن كل هذا بالكيمياء . فهكذا فلتكن هذه القصة الشريفة التي يسمعها الناس واكثرهم لا يعلمون الا حديث الحب والود فأشبهوا ذلك الرمال ومدعى الكيمياء وهما لا يعلمان كما انهما لغيرهما مقدمتان

لعلك تقول ما لنا نراك تضرب الامثال بالكيميائي والرمال والمغربي الدجال فاشرع الآن في المعنى المقصود وأرنا ذلك السر المصون حتى نقف على تلك العجائب ونفهم سر تلك الغرائب اقول خذ مني القول سؤالا وجوابا على ما ألفته فبم اسمعناك واصغ لما اقول سمعاً سألني سائل يقول

(س) مالك تعاود التذكير بسورة يوسف وقد سبق القول والتفسير منك لها في كتاب النظام والاسلام وما هذا التكرار والدور في نفس المدار

(ج) لكل مقام مقال فهناك تعميم وهنا تخصيص وذلك مبادئ وهذه نهايات وتلك اشارات وهذه عبارات وتلك مقدمات وهذه نتائج ولا خير في علم بلا نتائج ولا في شجر بلا ثمر ولا في قراءة بلا فكرة ولا في فكرة بلا عبرة ولا في

عبرة بلا عمل ولا في عمل بلا اخلاص

(س) ما انواع العبرة في هذه السورة وما علاقتها بالصبغة الوطنية المصرية وما فائدتها للمجتمع الاسلامي عموما والمصري خصوصاً

(ج) في هذه السورة خمس عبر (١) رؤيا يوسف النبي (٢) واذى اخوته (٣) قصته في بيت العزيز (٤) وقضيته في السجن (٥) وتنظيمه للخزائن المصرية

﴿ ١ ﴾ الرؤيا

اذا كان الحب والنوى ينبتان نجما وشجرا فالنتيجة حب ونوى وما كان فكرا اولا فهو عمل آخرا هكذا كان اول حياته عليه السلام ان رأى احد عشر كوكبا والشمس والقمر له ساجدين وعليها اقيمت حياته وتنوعت اطوارها وبالسجود له والاعظام ختم تاريخ حياته وخروا له سجدا وقال يا ابت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا

فاول الفكر آخر العمل

ان للنفوس الانسانية خصائص تبدو علاماتها لذوي الفراسة ويختلج فيها من ابان الصبا ما خصص له استعدادها

ويبرز في افعالها واقوالها وتمثلها وتقليدها واحلامها وان امتاز عليه السلام بالنبوة والرسالة والفضيلة وصورت له الاجسام الارضية بصورة الاجرام السماوية والمركبات العنصرية المظلمة ذوات الانفس الشريفة بالكواكب المضيئة صور بديعة وآيات عجيبة الا ان لكل رؤيا تناسبه واحلاما توافقه وطالما دلت الرؤيا ذوي الفراسة على اخلاق الرائين وافادت السامعين انباء عقول القائلين فلكل امرئ مناهج يسلكها ومطالب يرصدها ومقاصد يؤمها لذلك رأى النبي النجوم وجمالها والسجود والخضوع ورأى الملك المصري سبع بقرات سمان تأكلهن سبع بقرات مهزولات ضعيفات وسبع سنبلات خضر التفت عليهن سبع سنبلات يابسات فامتصت ماءهن وتركتهن يابسات ولم يبد على البقرات الآكلات سمات السمن ولا على السنبلات اليابسات ايات النضرة ومظاهر الحياة . رؤيا النبي جمال النجوم وسجود الساجدين

ورؤيا الملك سنبلات وبقرات ذلك عجب عجاب بعث الانبياء للعبادة والتفكير في الجمال وخلق الملوك لنظام الممالك وحفظ البلاد والعباد من الخراب والدمار فالسجود من جنس

العبادة وان لم يكن في هذا من عبادة ولكنه تكريم والنجوم جمال والجمال السماوي والبهاء الكوني مصدر التفكير والتعليم الا ان في اشراق الكواكب والشمس والقمر في نفس سيدنا الصديق في صباه لعجبا عجيبا ودلالة على عفته عند الحرمات وتعليما لطبقات المصريين وحفظ المال ان يضيع والناس ان يموتوا كل ذلك مقتضى النفوس الجميلة التي ذراها الله سحابا ماطرا وشمسا تضيء وقمرا ذا سناء

ألا ان الشمس لتشرق والناس لا يشكرونها والقمر ليطلع وان كفر به الناس والله خالق ورازق وان كفر نعمته العالمون

هكذا الصديق النبي تجلى للناس وتجلت له تلك الصور الجميلة فبرز بعد ذلك منه للناس آثار واضحة من العفة والصبر والعطف على المصريين وتعليمهم وتنظيم ثروتهم وثمرات نيلهم ولاهله وعشيرته صفح جميل وبر وصلة وعطف وان كانوا له حاسدين

فكان الاحسان لنفسه سجية والجميل بقلبه طريقة فأحسن للمسيئين من اهله والمصريين فكلاهما آذاه وكلاهما نال الخير منه بعد اذاه فهذا اوله وهذا منتهاه

فاما الملوك فما احراهم ان يكفوا على نظام الجمهور وحفظ الثغور والسهر على المصالح العامة

واهم المطالب الاجتماعية في الامم المتمدينة اربع . الامارة . والزراعة . والتجارة . والصناعة . ولما كانت الزراعة من اهمها وضعا واعمها نفعا واشرفها صنعا لا سيما عند المصريين الذين هم بها مغرمون وعلى ترتيبها ونظامها يحرصون روع قلب الملك المصري يابس سنبلاتها وعجاف بقراتها مما دل على اهتمام الملك بالرعية وحبه للامة المصرية وليست تصور النفس في المنام الا ما اهتمت به في الغالب اجل اهتمام

تصور الحقول المصرية وتأمل وتعجب

يظن الفلاح انه زرع وحصد ولا يعلم ان هناك له شركاء في الزرع هي أجل منه نفعا وأحسن صنعا

(س) ما شركاء الانسان في زرع الارض المصرية

(ج) شركاؤه الطيور الليلية والطيور النهارية كالبوم والغربان وابي قردان وبعض العصافير والخطاطيف

يزرع الانسان الارض ويحرثها بالانعام من البقر والجاموس ويعينه غيرهما من الماشية ويدرأ الاذى عن الحب والفاكهة

الطيور من الغربان والبوم وابي قردان وغيرها

الانسان والدواب زارعان والطيور دافعات للاذى طاردات للاعداء آكلات الدود مبيدات الفيران . الانسان والانعام تتعاون على الحرث والسقي وتبذر وتسمد الارض بابوالها وارواثها وغائطها واجسامها فهي مصانع للسماد حارثات للحقول آكلات الحشائش والحبوب

والطيور مبيدات المهلكات قاتلات الحشرات فجل الله جل الله ! خلق فسوى وقدر فهدى نظم الحقول كما نظم الممالك وانزل الانسان والانعام للزرع منزلة علماء الطبيعيات والرياضيات في الامم العالية وانزل الطيور من ابي قردان والغراب والبوم منزلة الشرطة في المدن والقرى والقضاة الدارئين للحوادث الداخلية واعوانهم المحامين ورجال الحرب الدافعين عن البلاد والضاربين بالقنا والسيف والمدفع والبارود

لا ريب ان القضاة والشرطة وقواد الجنود مدافعون وعلماء الطبيعيات والرياضيات وغيرهما للخير جالبون وما المدافع الا لحفظ المنافع فالمقصود على الحقيقة هم العلماء الجالبون للمنافع ومن عداهم فانما هم حصون لهم اليها يلجأون وفي اكنافها يمرحون

فثبت ان الانعام والانسان أهم للزرع من البوم والغربان وابي قردان وان كان الفلاح لايفلح بغير ما يصف او يدف بالجناح ولا فلاح لامة بلا جنود وقواد ولا حياة لها الا بالعلوم الطبيعية كما لا حقل في البلاد المصرية الا بالطيور الدورية وغير الدورية والفلاح الزارع والدواب الحارثة الساقية ومن عجب ان ترى الامة المصرية اليوم تجهل فوائد الطيور وتعقل منفعة القضاء والمحاماة مع انهما صنوان واخوان يتساوقان وخلان لا يفترقان

ترك المصري العلوم الطبيعية وعقلها الفلاح وهو يعمل بما ورث عن ابويه . جهل المصري فوائد الطير وهو المدافع عن المزارع وعقل المحاماة والقضاء

جهل عظيم وموت تام وطامة كبرى جهل المصري العصري عظيم عقل التحلية في المزارع وجهل تخليتها وادرك التخلية في نظام المدينة وجهل التحلية

ماذا فعل قدماء المصريين بماذا أفادوا البلاد في هذا المقام . اوصى علماؤهم الى الفلاحين ان اعبدوا العجول ولا تهينوها فانما هي حارثة لارضكم ذات نفع عظيم ثم أمروهم ان اعبدوا

الهرة وقدسوا أبا قردان ولم يذكروا لهم الاسباب وانما قالوا هذا سر من رب الارباب لان الجاهل لا يعقل ما يعرفه المتعلمون وما يعقلها الا العالمون . هذا منشأ عبادة البقر وبعض الطيور حيلة دبرها الرؤساء ولكن أكثر الناس ما كانوا يعلمون. لذلك كثر ذكر العجول في قصص بني اسرائيل فترى السامري أخرج لهم عجلاً جسدا له خوار وترى بني اسرائيل لما ارادوا اظهار القتيل أمروا بذبح بقرة ومن هنا أيضاً كون الارض على قرن الثور . الا لتعجب من هذا كيف كانت رؤيا الملك سبع بقرات وكيف كانت رؤياه تجمع المقصود وهو الزرع واهم مقدماته البقر ولم يرد في الرؤيا الطيور فانهن كالمحامين والقضاة والامم اذا خلت من الاخلاق الشاذة والنفوس الناقصة لم تحتج الى القضاء كما ان الحقل اذا خلا فرضاً من الحشرات لم يحتج الى الطير الصافات ولا غير الصافات

الانسان والانعام والطيور جمهورية منظمة على كل قسطه من العمل ولكل حظه من ثمرات الارض ومنافع الحرث

لقد فقدت الامة المصرية أول قائد لجنودها وأكبر عامل لنصرها وركناً من أساطين حربها ذلك هو أبو قردان فلقد

اتصل نسله منذ آلاف من السنين وهو يحمي الذمار ويقود الجند المسلحة الهوائية فيهجم على الهوام والدود فيبيدها فيسلم الحرث والنسل . عرف المصري القديم جميله فآواه وأيده بل عبده وجهل المصري الجديد فضله فقتله وأباده هل هذا ثمرة التعليم والمدنية هل هذا هو الذي اليه وصلنا من الحكمة أيجمل في شرع المدنية وناموس العمران ان يعيش أبو قردان أكثر من عشرة آلاف سنة ثم لا يبيد الا في أوائل القرن المتمم عشرين لتندب مصر حظها لتبك علومها ولأبك على بلادي

هل نقبت حكومة البلاد وبحثت عن سبب ضياع هذه النعمة وزوال هذه الجنود المجندة أيحسن يا أبناء البلاد ان نجهل موارد رزقنا وعناصر حياتنا تباً للجهل وبعداً لنا اذا عشنا غافلين ويا ليت شعري أأنا في يقظة أم في منام ولعل ما أقول اليوم أضغاث أحلام وربما أجبت بقولهم وما نحن بتأويل الاحلام بعاملين

حكاية وأمنية

انطلقت الى شاطئ النيل الغربي لأتفرج على الاشجار والازهار فصادفت مسجداً يسمى مسجد الجزيرة شمال قنطرة

قصر النيل فدخلت للصلاة ورأيت النمل تغدو وتروح فوق الحصيرات المنسوجات وهي طالعات هابطات فوق الاعواد وبينهن لا ينثنين لذعر ولا يخفن من غدر وكأنما أرجل المصلين فوق الاعواد جبال وكأن الاعواد تلال والفجوات المتخللات أغوار ووهاد بالنسبة للنملات فأطلت النظر اليها والتأمل في حركاتها وسكناتها والتعجب من شجاعتها واقدامها حتى ان راحة يدي والذراع والانامل اللاتي تخيل لها جبالا شامخات وشعاباً واسعات لم تثبط عزيمتها ولم تكسر من همتها ولم تهلع لها قلوبها ولو انا تصورنا جبلاً يمشي على الارض وكاد يصادم الانسان ليطحنه لهلع اذا رآه ومات قبل ان يراه فشاهدني اذ ذاك فلاح معمم بعمامة سوداء فكنت موضع تعجبه واستغرابه وكان النمل موضع نظري ومسرح فكري فكان النمل لي عجباً وكنت عند الفلاح لهواً ولعبا فرفعت طرفي اليه وقلت يا أيها الانسان أتدري لم نظرت في النملات قال لا قلت انهن لأشجع من أكثر الناس قلبا لا يثنيهن الرهبوت عن مطلب الرغبوت ولا تهولهن الحوادث المزعجات والكوارث المدلهمات انهن لأربط منك جأشا وأشجع من الفلاح والشيخ والباشا لا

تنثني عن الرغبات ولا تنتهي الا الى الغايات ولسان حالها يقول
اما هلك واما ملك . قال الفلاح لقد قلت حقا ونطقت صدقا
فما ايقظني الا لسع نملة في جيدي فهي التي أقامتني للصلاة
الآن فكان ذلك الاتفاق من عجائب الزمان كيف كنت منها
في عجب والفلاح منها في هرب فقلت انها رأتك غاصبا لمكانها
حالاً في دارها فلم تهن لضعفها وقوتك ولم تضعف لخمولها
وسطوتك قالت لاسعنه أو يفارق الديار وموتي في الجهاد خير
من الحياة في المذلة والهوان فشاركني الفلاح في تفكيري
وعلمت انه من قم البحر وتطاول بنا الحديث الى ابي قردان فقال
لقد فقدناه في هذه السنوات وذلك لقلة تقوانا وضعف ايماننا
نحن عن الصلاة معرضون وما نحن للزكاة فاعلون وأكلنا التراث
اكلاً لما واحبينا المال حباً جماوفسدت منا القلوب نخلت الجيوب
فقلت ما للصلاة ولابي قردان ولكن الفلاح الجهول صاد
ابا قردان لجهله بمنافعه وبعده عن العلم الصحيح والعمل الشريف
فقال لم يصده احد من الناس وانما صاده الاوربيون وطالما
رايته يحلق ويرفرف بجناحيه حول المال وينفذ منقاره في الطين
ليبحث عن الدود والحشرات الكامنة فيه فيلتقطها ويزدردها

لقد كنت اذا انزلت الماء على الارض جلل هو وجهها ولقد
طلبناه في هذه الايام فما وجدناه وكان فقده في هذه السنين
وذلك منذ عشر سنين فقلت هذا الخبر يحتمل الشك وبت
تلك الليلة مشغول الفؤاد حزين القلب يائس النفس كئيباً لما
حل بالبلاد من الخراب والدمار وذهاب الثروة وضياع المال
وقلة العلم وكثرة الجهل . فلما انّ نمت خيل لي في نومي ان
صبياناً يركبون على شجيرات نابتات على ضفاف نهر ابي الاخضر
بالشرقية وكانهم ينفرون الطيور من اعشاشها ولا يقربونها في
وكناتها فهممت بهم كي يتركوها ونعقت بهم كي يقروها فرجعوا
مهرولين وولوا هاربين . فلما ان استيقظت وتذكرت ما رايت
قارنت رؤياي برؤيا ملك مصر في الازمان الغابرة والايام
الخالية اذ راى البقرات السمان والسنبلات الخضر واليابسات
ورأيت الطيور مذعورة وصبيان الامة لجهلهم يعمهون لقد
صدقت رؤيا الملك وصدقت رؤياي

مقابلة الاستاذ الشيخ محمد عسكر الكبير

ذلك اني اذ طلع النهار اتفق ان ارسل الي الشيخ محمد
ابو عسكر ذلك الشيخ الوقور وكنت له مشتاقاً فلما استقر بنا

الجلوس وتناجت فيما بيننا النفوس اريته ما قد كتبت وقصصت عليه ما رأيت وقلت لقد تبرأ الفلاحون من صيد أبي قردان وأتهموا بذلك الاوربيين وقالوا انا والله براء مما يقولون فقال الشيخ طالما وردت لي الاخبار ان الاوربيين هم القاتلون لابي قردان فقلت له أليس من العار والجهل والشنار أن يعيش أبو قردان قروناً وقروناً ويحميه قدماء المصريين من الفراعنة وملوك الرعاة ويعيش مع ملوك اليونانيين والبطالسة والفارسيين ويعبده الاثيوبيون والرومانيون وينمو في أزمان العرب الاسلاميين ولا ينقص عدده في أيام الامويين ولا يؤذيه العباسيون ويحمى من العدوان أيام الاخشيديين ويحفظ حياته الفاطميون ولا يمسه بسوء الايوبيون ويزداد عدده وينمو كثرة أيام المماليك البرية والبحرية ولا يبيده الترك ولا يعدو عليه العرابيون ولا ينقص عدده أزمان أسرة محمد علي باشا بل ظل جم العدد كثير المدد الى الثورة العرابية ثم أخذ في التناقص وأخذ الدود ينمو بالتزايد حتى فنى عن آخره

عار والله وأي عار أهذه هى المدنية والعلوم العصرية أهكذا يكون تمدين الامم أفبهذا أتتنا المدنية أيقتل هذا الطائر

شريك الفلاح صديق المصري والناس غافلون أفبهذا ارتقت مصر رب اليك المشتكى . يارجال الامة ياعلماءها وعظماءها وياوزراءها أهكذا يكون العمران أبو قردان أخو الفلاح كان معبوداً عبده قدماء المصريين لماذا ؟ لان كبراءهم أوصوهم به خيراً لفلاح الزرع بابادة الدودة والحشرات فاستوصوا به خيراً وتمادوا في ذلك ازدياداً حتى عبدوه هكذا كان الملوك السابقون والعلماء النابرون فورثنا أرضهم وجهلنا علمهم ما أعظم قدماء المصريين وما أجهلنا نحن الحاليين جهل عظيم وموت عميق وطامة كبرى ودمار وأي دمار

أخبرني الشيخ محمد أبو عسكر قال لقد قرأت في بعض الاسفار ان قدماء المصريين شكوا الى فرعونهم يقولون لقد طغت علينا الحيات واغتالت الابناء والبنات وأكثر ما يكون اذا اقبل النيل وعم البلاد وساق جنودها امامه واكتسحها من البور الى العمران فأوعز الملك الى العلماء والحكماء ان يداووا هذا الداء ويلتمسوا له الدواء فلما ان جاءهم امره ساحوا في الارض يبتغون طيراً يلتقط الحيات ليربوه في البلاد فدلهم علمهم واراهم اختبارهم ووفقهم بحثهم الى (اللقلق) فربوه تربية حسنة

فنما عدده وكثر وصارت افراخه آلافاً مؤلفة فنجى الناس من شر الحيات وفرحوا بما عندهم من العلم والحكمة والهمة والدين فعلى قادة الامة واولياء امورها ان يصنعوا ما صنع القدماء ويجلبوا ابا قردان ويربوه حتى يكثر عدده ويهزم جيشه جيوش الديدان والا حقت كلمة العذاب على المصريين

عار يارجال مصر عار يا امراء البلاد عار يا عظماءنا هذا الطائر نصير الفلاح قاتل الدود مبيد الحشرات منعي الغلات كنت اراه بعيني يجلل الارض ويغطي وجهها اذا انزل الفلاح عليها الماء حتى قتله الجهلة الاغبياء من اوباش الناس ليزينوا به القبعات للسيدات وأباده اولئك الطغام فبادت البلاد وهلك الزوع وقل الضرع وأصبحت البلاد في شقاء عظيم أبمثل هذا تهان الامم وتداس الحرم هذا والله جهد البلاء وعضال الداء ونهاية الشقاء ولقد أنذرت وحذرت ونصحت ولا ينفعكم نصحي ان اردت ان انصح لكم ان كان الله يريد ان يغويكم هو ربكم واليه ترجعون

الفصل الثاني

ايذاء اخوة يوسف

لا أحد من المصريين ابناء بلادي يجهل ما فعله اخوة يوسف من كيد وما دبروا من حيلة وكيف نصبوا له الحبائل وجاؤا على قميصه بدم كذب وسولت لهم انفسهم امرا وصبر يعقوب صبراً جميلا ودلوه في البئر ثم باعوه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين اجمعوا امرهم بينهم واسروا النجوى واوثقوه في هاوية فما كان عاقبته الا ان تربى في مصر وترعرع وبلغ اشده وكان لهم من المحسنين هذه كانت قصة يوسف وذلك خبر اخوته فكان منهم الاساءة ومنه الاحسان ومنهم الشر ومنه الخير واول امره شقاء وآخره هناء ومبدؤه ذل ونهايته عز واسعاد. ذلك عبرة للمسلمين وتذكرة للمصريين وتعدة على العاملين تنبئك قصة يوسف بما يلاقيه المصلحون فيها من الجاهلين . ما في الارض من مصلح الا وكان اول امره مطارداً منبوذا تنتابه الاعداء ويسطو عليه الاقرباء ويحط من قدره الاصدقاء ويهينه الاولياء استغرابا لقوله واستبعادا لعمله وحطا من شأنه وحسدا له على ما أتاه الله من فضله

واحباطا لعمله وتشنيعا عليه فان صبر فاز وان جزع وعجل هلك وباد . فتعجب كيف كانت عاقبة النبي يوسف الصديق ان بيع للمصريين وترعرع في بيت العزيز وحاقت به الفتنة وصبر على الظلم والسجن ولم يدر اخوته الزاهدون ولا حاشية العزيز وهم له ساجنون ولا من كانوا معه مسجونين ان السعد سيؤمه وان العز سيرقيه وانه سيقبض على ناصية البلاد ويدين له الهرمان ويساعده الزمان وينسج على ما قاساه عناكب النسيان . ذلك مثل الصادقين القائمين بالاعمال الشريفة والفضائل العالية المنيفة . فليبشر اولئك الذين صدقت نياتهم وحسنت اعمالهم واخلصوا لامتهم وارادوا سعادة البلاد من الجهل والفساد فسوف يبدل شقاؤهم راحة وذلهم عزا وسعادة وتغنى الاغصان عند هبات الرياح بمدحهم ويعبق الجو باريج ذكرهم وعاطر ثنائهم . وهذا ناموس الوجود لم يشذ منه نبي مرسل ولا عالم مصلح وكانت العاقبة للمتقين ولم تذر من رجال الاصلاح من احد حتى اخذ حظيه من النصب والراحة وسار على خطتيه وحلب الدهر شطرين . ولقد كان لنا في رسول الله اسوة حسنة فلقد اوذى كما اوذى الصديق يوسف وما آذاه الا اقرباؤه الادنون وتألبت

عليه قرابته ثم نصره الله كما نصر يوسف وآوى اليه من كان يؤذيه كابي سفيان وهند زوجته وغيرهم من علية القوم وسراتهم وعظمائهم فاصبحوا له محبين كما خر اخوة يوسف له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا وقد احسن بيَ رب اني ايقنت بناموسك العالي وكتابك الكريم

يا أيها الناس يا ابناء البلاد لا يجرمنكم شنآن قوم من بلادكم ان يصدوكم عن اصلاحها فعلى مقدار فضل الرجل يكون اعداؤه وكما يكون النصب تكون الثمرات فاعملوا لبلادكم كما عمل الصديق وتجاوزوا عن خطوات الشياطين مع اخوانكم المبغضين المثبطين الحاسدين وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون

الفصل الثالث

قضية النبي الصديق في بيت العزيز

تتوالى النكبات أثر النكبات على المصلحين المجاهدين والانبياء المرسلين ساقت القوة الغضبية اخوة الصديق فهجروه بل نبذوه وباعوه وسلطت الشهوة البهيمية امرأة العزيز فراودته ويوسف باق على كماله صابر على عفته مع جماله فقالت له لتسجنن

ولتكونن من الصاغرين فقال انما الصغار لمن لا عفة له ولا شرف ونفس المرء اوسع من السموات والارض

اذا لم تسعك النفس فالكون كله

وافاقه للمرء أضيق من قبره

وفي الفكر نيران وفي الفكر جنة

وما اكثر الآفات الا من الفكر

فاذا خنت سيدي ودنست عرضي كنت من الجاهلين او يجمل في دين المروءة ان يحسن الي واسئ ويصدق واكون من الكاذبين ان العزيز سيدي أحسن الي وعطف بالبر والاحسان علي فهل جزاء الاحسان الا الاحسان واللئيم يجزي المحسن بالكفران الا بعدا للجاهلين أنا من بيت النبوة بيت ابراهيم واسرائيل ولن يليق بي ان اكون شر خلف لخير سلف حتى يقال في نخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا أنا أرنو لشرف عظيم ومجد كبير ومن لم يحفظ النفس في أبان حياتها فعدت به همته عند كبرها ومن أراد الاصلاح فليبدأ باصلاح نفسه وليكرمها فانها بالاكرام أولى ومن لم يحكم أمر البداية حرم الفضل في النهاية

عبرة

فعلى من يريد الاصلاح ان يفي بالعهد ولا ينقض الميثاق ولا يخون اخوانه في العرض ولا في المال ولا يفشي لهم سراً ذلك هو مبدأ الشرف الاسمى والخير الاعم والفضل الادنى وقد قال الله لنبيه فبهداهم اقتده فنحن أولى بالاقتداء وأحق بالاتباع واذا اقتدى المعصومون فغيرهم أولى بالاتباع وأحق بالاعتبار

الفصل الرابع

سجن النبي يوسف الصديق

ما أشبه قصة النبي يوسف عليه السلام بعلم تهذيب الاخلاق اذ يقسمونه ثلاثة أقسام سياسة النفس بالعفة والصيانة كما كان الصديق في بيت العزيز وسياسة أمر المنزل أشبه بما اتفق له في السجن واصلاح أمر المدينة كما حصل له اذ قال له الملك ائتوني به استخلصه لنفسي فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين امين. حلقات ثلاث لا يصلح اخراها الا بصلاح أولاها عف في أول منازله فقشى ظلم الحاشية على حسن سيرته واتهموه وهو بريء وسجنوه وهو محسن فكان السجن ثاني المنازل فنصح للمسجونين وقال يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون

خير أم الله الواحد القهار درس لهم التوحيد وعلم السياسة ثم ذكر شرف قومه وأهله فقال واتبعت ملة ابائي ابراهيم الخ نصح النبي الصديق للمصريين وهو غريب حفظاً للجميل وقياماً بحق الانسانية والنبوة ذلك ارشاد من الله وتعليم ان كونوا أيها المصلحون شموساً تضيء سناها على العالمين ولا تدعوا أيها المرشدون الفلاحين المصريين غافلين بل أيقظوهم وعمموا التعليم ان المصري لشكور على النعماء مجاز لرحمة الرحماء فلعمرك ما دل الملك على الصديق الا ذلك الخادم الساقي على بساط الملك لما سمع منه الحكم الغوالي والدرر الثمينة فأثمر عنده الاحسان وقال للملك ارسلون الى يوسف ليؤول الرؤيا ففعلوا .لقد نصح النبي في السجن ولم يعقه ضيق السجن ولا زور القول عن ان يقشع سحب الضلال ويصقل قلوب العامة بصقال العلم ويجليها بجلاء الحكمة فكان من المحسنين فليقم المصري بانتشال أمته من وهدة الجهل وليرفعها الى سماء الفضيلة وليعم العلم بين أفراد أمة المصريين

الفصل الخامس

أما ثالثة الاثافي وخاتمة الفصول الخامسة فذلك ان تبوأ

عرش مصر ودبر الخزائن ونظم أمر البلاد فأحسن للأمة المصرية وقد أساؤه فسجنوه أكرم أبويه الشفيقين وعفى عن اخوته بعد ان طرحوه ونبذوه وباعوه ودبر الحيلة لأخيه بنيامين بعد ان جعل بضاعتهم في رحالهم فعرفوها واكرم الصديق أبويه وأحسن الى عشيرته الاقربين وقال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين وقد قالها بلفظها رسول الله صلى الله عليه وسلم لابي سفيان يوم فتح مكة فقال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين وعد الله الرسل بالنجاة والفوز والسعادة ولن يخلف الله وعده

يقول والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين يحذو الاواخر حذو الاوائل ويتبع الآخرون سبل الاولين سلام على المرسلين وسلام على الصالحين وسلام على المخلصين

يقول الله (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الالباب ما كان حديثاً يفترى) سورة يوسف أحسن القصص لقد خلت مما يتنحى عنه أولو العزم من المرسلين كالعجلة التي ابتلى بها ذوالنون اذ قال الله لنبيه (ولا تكن كصاحب الحوت اذ

نادى وهو مكظوم) يأمر بالصبر والثبات والتؤدة حتى يأتي أمر الله . وقد كان وصدق الله وعده ونصر عبده واعز جنده وهزم الاحزاب وحده ولم تجمع قصة موسى وفرعون وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين وأهل الكهف وأصحاب السبت من المواعظ والعجائب والمقدمات والنتائج ما تضمنته قصة يوسف لذلك كانت أحسن القصص وعليها سار صلى الله عليه وسلم حتى نال أعلى الغايات والنهايات

وليعلم أهل الاسلام في مشارق الارض ومغاربها ان قصص القرآن جميعها مملوءة بالحكم كهذه القصة وفي كل واحدة منها ما ليس في الاخرى كأنها ثمرات مختلف ألوانها ولا كتف بهذا القدر « ان أريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب »

* ولأذكر نموذجاً آخر لذلك وهي محادثة جرت بيني وبين فتى في حديقة الجيزة * اذ قال انني اعتقدت ان القرآن أعظم مشرق للعلوم ولكن أناساً يقولون

١ — ان الدين لا علاقة له بالكون وهؤلاء علماء أوربا نراهم عزلوا الدين عن العلوم فأفلحوا وهم صادقون فأخبرني

رعاك الله سيدي أين أنت من قصة سليمان وما حكاه الله في القرآن ولقد سئلت أسئلة فلم أقدر على الاجابة عليها فها أنا أعرضها الآن

٢ - كيف سمع سليمان النملة وهي تتكلم (حتى اذا أتوا على وادي النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) وتفسير الآية ظاهر بأقل التفات

٣ - وكيف يقول الرب (وورث سليمان داود وقال يا ايها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء) وكلمه الهدهد فقال (أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين اني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء) الآية

٤ - وكيف يقول (قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل ان تقوم من مقامك واني عليه لقوي أمين) وكيف يقول « قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك » .

٥ - وما تلك الابنية العظيمة المسماة بالمحاريب التي كانوا يعملونها له [يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل]

٦ - وما تلك القصاع الكبيرة المعبر عنها بالجفان وما تلك القدور الراسيات العظيمات

٧ - وكيف تسيل المعادن من الارض المرموز لها بقوله « وأسلنا له عين القطر » أي اسلنا له النحاس كالعين ينبع

٨ - وما هي دابة الارض التي أكلت عصاه في قوله « ما دلهم على موته الا دابة الارض تأكل من سأته فلما خرّ تبينت الجن ان لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين »

٩ - وكيف سخرت له الريح حتى قال (ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر) شهر اول النهار وشهر آخره

١٠ - ما هذه المحاورة التي بين بلقيس وقومها واستشارتهم في الامور العامة والسياسة عند وصول كتاب سليمان اليها (قالت يا أيها الملأ افتوني في أمري ما كنت قاطعة امراً حتى تشهدون قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد) الآيات وهذا السؤال الاخير ليس فيه اشكال وانما سألتكم فيه تكميلاً للمقام واني أعتقد ياسيدي ان هذه لا علاقة لها بالعلوم لبعد منالها عن الافهام ولا ينبغي ان يفهمها الا العامة أما أمثالنا الذين اقتبسوا العلوم واجتلو الحقائق فالاجدر بهم ان يكفوا عن هذا وسكت

فقلت أيها الفتى ان لكل أمة وجهة توليها وتناسب حالها والامم التي ذكرت لم يكن في ديانتها علوم وانما هي مواعظ وقوم دينهم شأنه هذا جديرون بعزله عن العلوم فنحن على هذا نقر لهم بالعلم والحكمة وانما كان هذا شأنهم لان عيسى عليه السلام جاء بالروحانيات خالصة وابتعد عما عداها ولم يلتفت قط في خطابه الى غير ذلك وموسى قبله أخذ بالجسمانيات وأما القرآن فجمع بين الامرين وتكلم على الجسمانيات والروحانيات وأشار الى العلوم اجمالا فاذا قلدناهم في ذلك ساءت العقبى لان المسلمين أمة عودها دينها ان يتكلم عن جميع شؤونها اجمالا حتى انه يعلمهم المواريث والاحكام ويفصل بينهم بالحق فاذا جاؤا الى العلوم وعزلوه عنها ارتبكوا في شؤنهم ولم يجتمعوا على رأي واحد فالقرآن جامع بينهم

وأما مسئلة نبي الله سليمان عليه السلام فاني أرى انك تستعظم ذكر النملة وكلامها والهدهد وخطابه والارضة وأكلها العصا مع نبي الله سليمان ويلوح لي انك لم تعلم ما المراد من ذكر هذه الحيوانات . ولنقدم لك مقدمتين قبل الخوض في الجواب عن أسئلتك العشر فقال نعم هات . فقلت تعلم أيها

القتى ان الامم أجمعوا على استحسان ذكر الحكم والعلوم والمواعظ على ألسنة الحيوانات والانسان ألم تر الى كتاب كليله ودمنه نخبة كتب الهند وترجمة الفرس والعرب وهكذا نسجت كتب كثيرة على منواله في الاسلام وقد علمت هذا المقام في قصة سيدنا يوسف عليه السلام فلا أطيل بالاعادة

المقدمة الثانية - ان الحيوانات على قسمين حكيمة تعمل الاعمال العجيبة كالنمل في بناء المساكن والادخار والارضة في الهندسة والاتقان والنحل وغيرها فهذه حيوانات صغرت أجسامها وعظمت حكمتها . والقسم الثاني حيوانات خلقت للعمل كالثور والجاموس فلا قدرة لها على أعمال النمل ولا النحل ولا دود القزفهي حيوانات عاملة لا عالمة فأعطيت الضعيفة العلم والقوية العمل قسمة عادلة وقد جعل الله الحيوانات الحكيمة معلمة للانسان ، فبعث الله غراباً يبحث في الارض ليريه كيف يواري سوأة أخيه قال ياويلتى أعجزت ان أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي ،

اذا فهمت هاتين المقدمتين فاعلم ان قصص القرآن جاءت بوجه عام حكاية عن الانبياء وهم أشرف ما يعلمه الانسان وهذه

اول مزية واضحة الظاهر حقيقية وهي مرتبة ثانية ودالة على التوحيد والاخلاق وهي مرتبة ثالثة خالصة مما لا علاقة له بذلك وهي مرتبة رابعة وهذا نبي الله سليمان عليه السلام لم يذكر معه الا النمل والهدهد والارضة وهي دابة الارض فظاهر هذه الالفاظ امور سهلة بسيطة وكلم الهدهد وسمع النمل واكلت الارضة عصاه فأما الجاهل فتى سمع هذه اكتفى بها وقال كفى بهذه معجزة ويقف عند هذا الحد ويظن ان هذا غاية ما في القرآن وهذا في الحقيقة لم يصل لدرجة تلميذ في المدارس فانه يقرأ الحكاية ويقول ما مغزاها وما المقصود منها ولما علم أهل أوربا ان التاريخ جعل للعظة والاعتبار وجهوا اليه عنايتهم وأخذ كل عالم يهذب تاريخ قومه علما منهم ان المدار على ثمراته لا سرد حكاياته

ثم ان علماء الاسلام ما وضعوا علوم البلاغة الا لخدمة القرآن . ومن أجل تلك العلوم فن البيان وفيه الاستعارة التمثيلية التي تشمل جميع الروايات والخيالات وما جاء على ألسنة الحيوان والنبات . ومنه مقامات الحريري واعترضوا عليه بان هذا خيال يلتبس بالحقيقة ومن هذا القبيل جميع الروايات المنتشرة في زماننا

هذا فأما مثل كليله ودمنه الذي جاء على ألسنة الحيوانات فقد قبله جميع علماء الغرب والشرق لظهور ان القصد منه الحكم والمواعظ وهذا هو الاستعارة التمثيلية بالطريقة العملية وهناك نوع يسمى الكناية وهى لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع ارادة المعنى الاصلي فيكون المعنى الاصلي صحيحاً واللازم هو المقصود بالذات وعلى هذا جاء قصص القرآن فيكون حكايات ظاهرها صحيح ومقصدها ما وراء ذلك المعنى فالعامي يقف عند مجرد الحكاية فاذا سمع مسئلة الهدهد مع سليمان والنمل وحد الله سبحانه وتعالى وأخلص له وعبده وأخذ يسبح بكرة وأصيلا - أما العالم فاذا سمع هذا قال ليس القصد من هذه القصة مجرد الخطاب فان النمل ومسئلته والهدهد وخبره والارضة وأكلها أمور تشير الى ما هو أدق من ذلك وأرقى وكون نبي الله سليمان عليه السلام علم منطق الطير وان كان صحيحاً في نفسه ولكن الطير ليس عنده من العلم الا مقادير محددة تناسب مأكله ومشربه اذاً هذه الامور تستلزم بطريق الكناية معاني أرقى من هذه مرادة ومقصودة واذا كان كل كلام عربي وأعجمي له مغزى فكيف يحرم من هذا كلام الله

ولاجله دون فن البلاغة ان هذا لهو الخسران المبين ومن ادعى ان المقصود حكاية بسيطة فهو أحقر من ان يكون تلميذا بل هو حيوان فالاولى ان يسكت وليعتزل العلماء وليجلس مع العامة فليس له في العلم من نصيب

فقال الفتى ما مثال الكناية من كلام العرب فقلت أنواع المجاز والكنايات عليها مدار تفاضل البلغاء والشعراء والخطباء وكل كلام لم يكن فيه تلك الملح بجيده عاطل من حلي البلاغه ولأذكر لك مثالا واحدا لتقيس عليه ما سواه . دخل صخر أخو الخنساء عليها يوماً واستشارها في ان تتزوج دريد بن الصمة أحد مشاهير العرب فقالت في أبيات لها

معاذ الله يرضعني حبركي قصير الشبر من جشم بن بكر

فالجاهل اذا سمع مثل هذا يقول أين المناسبة بين السؤال والجواب فهو يقول لها تزوجي دريداً وهي تقول أعوذ بالله ان أرضع طفلا قصيرا شبره قصير أما العالم فانه يعرف اللازم والملزوم ويدرك سراً فهمه العربي في البادية بدون تعلم بل بالفطرة والمنحة الالهية وهو انها ان تزوجت فلا بد من الاقتراب والاقتراب يتبعه الحمل فالوضع فالرضاع لطفل يشبه أباه غالباً

وأبوه قصير فيكون قصيرا والاعضاء على حسب الجسم ومنها الشبر فيكون قصيراً فاذا لم ترضع الطفل الموصوف بما ذكر لزمها ان لا تتزوج اباه المرتب على زواجه ما بعده فهذه لوازم وملزومات ذكرها علم البيان ومقدمات خطابية يذكرها المنطقيون عرفها هؤلاء الاقوام بفطرهم واذا كان هذا كلام اعرابية في البادية وقد تضمن هذه الحكم وذكرت امراً صحيحاً وهو الامتناع من الارضاع ولكن ارادت ما هو ارقى من ذلك عند الفطن وهو عدم التزوج بدريد بن الصمة وهو المقصود بالجواب وقد عد هذا من اجل طبقات البلاغة فما بالك ياسيدي بالقرآن الذى هو سيد الكلام فكيف لا يكون فيه كنايات أم كيف لا يكون فيه رموز وحكم وعجائب وغرائب ولو نظرت في كلام العرب بامعان لرأيت فيه كثيراً من ذلك جداً فما بالك بكلام الله (جل جلاله الله أكبر) كل كلام تظهر بساطته عند الجاهل يعظم أمره عند العالم الماهر المدقق وما مثل الكلام السهل الممتنع الا كمثل النور يبدو للجاهل فيظنه معروفاً عنده لشدة وضوحه فاذا نظر العالم فيه وبحث عنه وقف على كنهه وهام العلماء قديماً وحديثا يبحثون عن كنهه

ولا يزالون مختلفين الى يوم الدين .

العلماء ثلاثة عالم لغة وهو يفسر القرآن تفسيراً بسيطا كل لفظة بما يراد منها وهذا في طبقة العامة لم يمتز عنهم والعامة بمثل هذا مولعون وهو وهم ناجون بصدقهم وتصديقهم وهم مؤمنون

وعالم البلاغة وهو أرقى من سابقه مولع بفهم المقصود من الكلام فيتصرف فيه بالمجاز تارة والكناية أخرى والاستعارة بأنواعها والتمثيل وضروبه . وهذا متوسط في العلم وفوقه عالم درس جميع العلوم وعرف الكون وأصبحت له ملكة بها يحلل ويركب في المعلومات وهذا هو العالم حقاً وهو الحكيم الذي يأخذ بأمته الى العلا وهو الذي أشار له الله فى قوله (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء) فتأمل كيف مدح العلماء بعد ذكر حكم الله في الكون وتنويع أشكاله ومزايا أصنافه وعجائبه والى هذه الطبقات الاشارة بقوله (يرفع الله الذين آمنوا منكم)

اشارة الى الطبقة الاولى (والذين أوتوا العلم درجات) اشارة الى الطبقتين بعدها وهم درجات بعضها فوق بعض كما قال ابن عباس بين العالم والجاهل سبعمائة درجة كل درجة كما بين السماء والارض اشارة الى تفاوتهم في الفهم كما هو مشاهد محسوس في كل فن من الفنون

فاذا لم يمكنك ان تكون من الحكماء فاجتهد ان تكون من علماء البلاغة وهم أوساط الامم الذين يناط بهم التحرير والانشاء ومن سمع آية من القرآن فان كان من الفريق الاول وهم علماء اللغة والعامة فليس لهم الا ألفاظ بسيطة ترجع لعلم اللغة فان ترقوا قليلا للبلاغة فيا حبذا

ولقد أصبحت الامم جمعاء تحو هذا النحو في تعليم صغار تلامذة المدارس وهذه أمور سهلة ليست خارجة عن السنن المعهودة فمن ظن ان القرآن لا يفهم فالاجمل به ان يصمت ويعتزل العلماء

عجباً ان يكون لكل حكاية في العالم مغزى يراد منها ويسلب هذه المكرمة أبلغ الكلام أين البلاغة اذاً فقال الفتى كفى هذا وأرجو ان أسمع ما ترمز اليه هذه القصة فأجلته الى الغد

رجعنا الى الحديقة فقلت يا بني ان هذه القصص تشير الى مدنية كانت عند نبي الله سليمان فان مدار المدنية الآن على ١ - سرعة نقل الاخبار بالبريد والكهرباء والتلغراف بلا سلك ٢ - وسرعة النقل وسهولته بالسكك الحديدية والآلات البخارية والمراكب الهوائية (البالون) الذي سيخلف السكك الحديدية الارضية بواسطة تبخير الغازات التي هي أخف من الهواء ٣ - وانشاء المباني العظيمة ٤ - وفن النقش والتصوير وصنع التماثيل العظيمة ٥ - واستخدام المعادن على اختلاف أنواعها ٦ - والتدبير والاحكام والهندسة ٧ - والسياسة بالتشاور وجعل الامر بيد الامة وان لا يستبد الحاكم بالرأي ٨ - والاعتماد على النفس ٩ - والتحلي بالعلوم والمعارف ١٠ - والاقتداء بالصنعة الالهية فهل المدنية غير ما ذكرت لك الآن : فقال الفتى هذه أمور عامة داخل تحتها فروع كثيرة قلت ١ - الهدهد اشارة الى ان النبي سليمان عليه السلام أعطى سهولة نقل الاخبار بأي طريقة من طرق النقل والهدهد رمز لذلك وقد أعطى حكمة ورثها عن آبائه وأيدها الوحي بها فنقل الاخبار سرعة ليس خاصاً بالهدهد بل به وبغيره ولعل عنده ما هو

أرقى مما عندنا على سبيل الكناية

٢ - وتسخير الريح له اشارة الى ان وسائط النقل متوفرة عنده عليه السلام حتى وصل الى استخدام الريح الذي يبحث عنه الاوربيون الآن بالطيارات المعروفة وان كان للنبي معجزة لا يصل لها البشر ولغيره بالعمل وهو اقل واضعف ويقال ان النقل في مستقبل الامر يكون بها لتخلو الارض للزراعة والمنافع الاخرى ويشارك الانسان الطير في الطيران وهذا كان سراً لا يعلمه الا ذلك النبي معجزة له ذكره الله في القرآن ليجد الناس في العلوم لعلهم يصلون الى بعضه أما الوصول الى غايته فلن يصل أحد اليه ٣-وأشار الى المباني العظيمة بقوله يعملون له مايشاء من محاريب ٤-وأما فن النقش والتصوير ففي قوله وتماثيل

٥ - واما استخدام المعادن فهي قوله وأسلنا له عين القطر وهو النحاس فقط وهو رمز الى المعادن على اختلاف أنواعها من اطلاق اللفظ وارادة لازمة او الجزء وارادة الكل اذ المدنية الهائلة العظيمة تستلزم الترقي في استخراج المعادن

٦ - واما التدبير والاحكام في الصناعات واتقانها فاليه الاشارة بفهم كلام النمل وسماعها ولذلك يقول (وورث سليمان

داود وقال يا ايها الناس علمنا منطق الطير) فأطلق واريد به لازم معناه وهي الحكم والمعارف والعلوم والنظامات التي اودعت في الطير والحيوان وليس القصد مجرد تلك الحكاية من الطير والدواب الدالات على اشياء لا تخرج عما يليق بحياة ذلك الحيوان من مأكل ومشرب لا تعني نبياً من الانبياء الا للاعجاز والتحدي والا فهو أرقى وأوسع علماً فنبي الله سليمان أوتي الحكمة والعلم أشار له بقوله بعد ذلك (وأوتينا من كل شيء) ثم أخذ يسرد حكايات النمل والهدهد ليدلك على الحكمة التي أعطيها حتى لم يذكر في قصته الا الحيوانات الحكيمة ولم يذكر الجمل ولا البقر في قصته اذ هو عليه السلام نبي وحكيم ورث بعض العلم عن آبائه الذين ألقيت اليهم النبوة والحكمة — أما سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم فلم يكن علمه ميراثا وانما جاء كله بطريق الوحي فهو أمي لامة أمية جاء في جزيرة العرب لهم خاصة وللناس عامة فأمرهم بالتوحيد والنظر في الكون والاخذ بأحاسنه ومما قصه عليهم هذه القصة النبوية وقال تعالى له فبهداهم اقتده فامره بان يقتدي بهم ومنهم نبي الله سليمان وقد اوتي الحكمة والعلم فوجب اذاً على اتباعه ان ينظروا في

قصته ويطلبوا العلم الذي يرقي مدنيتهم من الامم حولهم فان بعض العلوم التي عند نبي الله سليمان ورثها عن آبائه وتلقاها عنه حكماء اليونان فالرومان وقد كان فيثاغورس تلميذا لنبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام كما قيل وقد انتشر علمه في اليونان والهند كما في كتاب (الملل والنحل) ومنهم الى الرومان فالعرب فاهل اوربا فكان ادواراً شتى وطرقاً مختلفة فقصة سليمان اشارة لمدنية قديمة معلوم عهدها مجهولة آثارها اذ سندهم متصل بقدماء المصريين وكان بيت بني اسرائيل مجتمع الحكمة من الامم الغابرة ودام ملكهم قروناً متطاولة ولذلك لما خرجوا من مصر امرهم موسى بذبح البقرة لان اذهانهم قريبة عهد بالعجل المسمى ابيس وعبادة المصريين له ولهذه الحادثة سميت بها اكبر سورة في القرآن فقيل سورة البقرة وكان بنو اسرائيل اذ ذاك غلاظاً شداداً لا يفقهون الحكم فامروا بذبح البقرة التي على هيئة عجل ابيس معبود المصريين ولما كثر فيهم الانبياء وتمادى الزمان رقت اذهانهم وجاء فيهم نبي الله سليمان عليه السلام واوتى الملك والحكمة وقال يا ايها الناس علمنا منطق الطير وذكر حديث النمل وغيره . فتأمل رعاك الله تجد الامم المتأخرة الآن تبحث

عن هذه الحيوانات وتتأملها حتى في أصغر كتاب للتلامذة فميزان الامة نظرها في الكون فكلما دقت أنظارهم وعرفوا بواطن الاشياء ترقوا في المدنية والعكس بالعكس وهذا هو المقصود بذكر هذه الحيوانات في قصة ذلك النبي ومن العجيب ان السورة التي ذكر فيها النمل وسميت باسمه كانت قصيرة بخلاف البقرة وانني لا أزال أيها الفتى أتعجب من تخصيص ذكر هذه الحيوانات في قصة سليمان ولم يقل نخاطب البقرة والخيل والحكمة ما علمت فقال الفتى كفى في هذا السؤال

٧ - فقلت وأما التشاور في الامر فهو ظاهر من محاورة بلقيس لقومها واستشارتهم في الامر وآدابها وآدابهم وهذا ظاهر لا يحتاج الى ايضاح

٨ - وأما الاعتماد على النفس فهو ما ذكره من مسئلة العفريت من الجن وادعاء الجن انهم يعلمون الغيب فقال (قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك) فبهذا هداية للانسان انه متى حاز النهاية في العلوم لم يكن مثله أحد من المخلوقات اذ هو خليفة في الارض وهو أقوى من الجن فهذه أول داع لذوي العقول ان يتقدموا في

العلوم والمعارف وقال (ما دلهم على موته الا دابة الارض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن ان لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين) فهذه كلها تريك ان الاتكال على الاخبار بالغيب عجز وجهل

بل الاهتداء بالامور المعهودة والتأمل في أعمال الخليقة يهدي الانسان الى الطريق الاقوم فان كثيراً من الناس يخبرون بالغيب ولكنهم فيهم الصادق والكاذب فلا يعول عليهم ما عدا المعصومين من الانبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين والعفريت والجن في هذه الآية يناسب ما انتشر في أوربا الآن من ظهور عالم الارواح وتكليمهم اياهم مما هو شائع مستفيض والجن والعفاريت هم من قبل أولئك المستحضرين في أوربا وهم يخبرون بالغيب والقرآن يفيد أن الانسان لا يلتفت الى كل خبر منهم بل يعرض كل قول على عقله واستنتاجه كما وضح من هذه الآية . ونتيجة ذلك ان الاعتماد على النفس والعقل في كل شيء علو للهمة في العلوم والمعارف وان الانسان في علمه فوق الجن مكانة كما في مسئلة دلالة دابة الارض على موت سليمان وجهل الجن به والانسان أسمى قوة كما في نقل

عرش بلقيس بأسرع من لمح البصر فقال الشاب وكيف انتقل سريعاً وبين الشام واليمن أشهر فقلت ذلك اشارة الى ان فوق هذه المدنية الحاضرة مدنية أخرى أسمى منها وأرقى وان كان ذلك معجزة للنبي سليمان عليه الصلاة والسلام ولكن يطلب الاخذ بالاسباب لكل ما يسهل وسائل النقل والاسراع فيها

٩ ـ أما الاجتهاد في العلوم والمعارف فهو مفهوم من قوله الذي عنده علم من الكتاب

١٠ ـ وأما الاهتداء بالكون والصنعة الالهية فيفهم من السورة بتمامها وتأمل في النمل وانظر فقال الشاب ما رأيت أعجب من هذا البيان

ثم قال الفتى أخبرني عن يأجوج ومأجوج وكيف ذكرهم الله في القرآن ومالنا بهم من علم وفي أي زمن خروجهم فقلت أيها الفتى قد سأل هذا السؤال أحد أدباء الهنود من زمن غير بعيد وأجبناه في مجلة الهلال وهي في نظام العالم والامم

القسم الثالث

﴿ من المسؤل الملوك أم العلماء أم العامة والسوقة ﴾

خلق الانسان ضعيفاً في طوره الاول جاهلاً في مبدئه وانما الشجاعة والعلم حادثان عليه فاذا ألم به حادث مدلهم رأيت منه استكانة وخشوعاً وخضوعاً وذلة وسقط في يديه أسفاً وحسرة وحزنا وعض على يديه ثم طفقت قواه العقلية تؤنبه وتجادل بالباطل . لم كان كذا وهلا ولولا فتتلاوم الواهمة والمفكرة والجسم يتقلب بينهما على نيران الحسرات والهموم والغموم — وما أشبه هذا بما جاء في التنزيل عن حديث القيامة وشهادة الاعضاء على الانسان بما كسب (حتى اذا ما جاؤها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء) ولعمرك لم يكن ذلك الا لضعفه وجهله ولو انه ترك الجدال وقال للحوادث الملمة النزال النزال لكان له الغلبة عليها والسيطرة فوقها والقهر — هذا مايشاهده كل انسان في نفسه ويعلمه من سواه طبيعة الجماعات كالافراد وما هي الا فرد مكرر حكمه

كحكمه فترى الاسرة الغنية اذا آذنت شمس بهائها بالغروب واستبدلت من العز ذلا ومن السعادة شقاء يتحاجون في المنازل فالطرقات فبين يدي القضاء بل يستعينون بالاعداء على الاولياء وبالغريب على القريب ويصبح المدره (المحامي) ولياً مرشداً وذلك أشبه بيوم القيامة (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) ولعلك تستغرب هذا التشبيه وذكر يوم القيامة ومتى فهمت ان القيامة وقت انكشاف الحقائق والاعمال بأتم مظاهرها تبين لك ان انكشاف الامر في الحياة الدنيا يشابهه وان كان بينهما بون بعيد (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا) وقال في طائفة « سنعذبهم مرتين » أي في الدنيا « ثم يردون الى عذاب عظيم » أي في الآخرة

هكذا ترى اللصوص وقطاع الطرق والمتعاونين على الافساد اذا وقعوا في قنص الحكام المسيطرين يتلاعنون ويتضاربون ويستبدلون المحبة بالعداوة والاقبال بالادبار والقرب بالبعد وما أشبهه بيوم الجزاء (الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين) تشهد بذلك وقائع اللصوص السارقين

والاشرار القاتلين وقطاع الطرق الفاتكين واخوان السوء المسجونين وكيف يتعادون عند المصائب ويسند كل ذنبه لاخيه ويتبرأ منه ويلعنه ويرسل اليه من كنانته كل سهم يؤذيه أو يصمه أو يصميه . هل الامة الا أفراد متكررون أو أسرات مجتمعون أو جماعات متعاونون فالقضية واحدة والطبيعة مطردة (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) ألست تراهم اذا أفل نجمهم وغاب سعدهم يتبرؤن اذا كانوا جاهلين من اخوانهم ويلعن بعضهم بعضا مع انهم لو جدوا في الاعمال لاسترجعوا مجدهم ونالوا الفوز المبين

وهذه شهادة سجلت عليهم في الدنيا كما تسجل يوم القيامة فالنفوس الانسانية عالمة بما فعلت مشاهدة لما اجترحت « بل الانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره » « قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم » الآية (ذلك ان لم يكن ربك مهلك القرى بظلم واهلها غافلون) اجل نظرك في الامم المنحطة وتأمل كيف ترى ملوكهم ورؤساؤهم واكابرهم وعظماءهم يلقون التبعة على العلماء ويقولون ما لنا من الامر شيء انما نحن ملوك الاجسام وما القلوب الا في قبضة العلماء هم

الدالون الهادون المرشدون فاذا انزووا عن الارشاد فأي ذنب علينا وانما الذنب كل الذنب على العلماء الذين لا يرشدون

ويقول العلماء أي ذنب جنيناه وأي اثم ارتكبناه وما الذي فعلنا - نحن قوم لا حول لنا ولا قوة - لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم - نعم نحن مرشدون ولكن القوة والصولة والجند والاعوان والمال والخراج بأيدي الحكام . وما نصنع . وليس معنا الا اللسان وقد قال الفرزدق لسيدنا الحسين رضي الله عنه اذ سأله عن أهل العراق (القلوب معكم والسيوف مع بني أمية) فأستودعك الله من قتيل

وهل ينفع العلم بلا قدرة أو الاحساس بلا عمل دعونا أيها الحكام من هذه المجادلات وكل ما هو آت آت

وينشد المزارعون والصناع والتجار قول الشاعر

ويسقط بينها المرئي لغوا كما ألغيت في الدية الحوارا

التبعة على الحكام والعلماء لقد قمنا بما توجبه علينا الشريعة مما عهد الينا من صناعاتنا وأعمالنا وانما السياسة والعلم ضعف أمرهما فلا ذنب اجترحناه ولا اثم عملناه ونحن أحسنا اعمالنا وما على المحسنين من سبيل انما السبيل على أولئك الذين رضوا

بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فلا مال بأيدينا ولا جند لنا ولا أعوان ولا رجال ولا علم نصول به على الجهال ولا مال نفك به الاغلال

هؤلاء هم رجال الامة الذين يحسون بما ألم بجسمها من المرض وهم قليل من كثير وهناك طائفة رابعة وهم السواد الاعظم لا يمر بخاطرهم يوماً ما مثل هذا ولا يفكرون فيه وهمهم قاصر على شؤونهم الخصوصية فلا يسمعون ولا يعون . وقد يتنابذون بالالقاب ويرجعون الى الانساب ويتبرأ التركي والمصري والسوري والعراقي والهندي والتونسي والجزائري والمراكشي والسوداني ويلقي التبعة على ما سوى جنسه

ولعمري ان هذا أشبه شيء بما جاء في وصف أهل الآخرة (واذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار قال الذين استكبروا انا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد)

وقد ارشدهم في موضع آخر الى ان الاشتراك في العذاب لا يفيد بقوله « ولن ينفعكم اليوم اذ ظلمتم انكم في العذاب مشتركون »

ولما عرفوا ان جدالهم لا يغني عنهم شيئا نادوا وطلبوا ضعفين من العذاب لمن أضلوهم والاسف على أنفسهم والاعتذار لها « يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا اطعنا الله وأطعنا الرسولا وقالوا ربنا انا اطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيرا »

هذا قليل من كثير وغيض من فيض مما ذكر في التنزيل من المجادلات بين الرؤساء والمرؤسين وانتقاد كل طائفة لسواها وتبرئتها انفسها - هذا اكثر ما توحيه الضمائر الى النفوس وتتناجى به الاخوان وتملأ به المجالس من شرر جهنم الجدل وتتلاطم به امواج بحار نوائب الحدثان

وقد ترجع الامة باللائمة على اسلافها وتذم جميع الطبقات وسائر الاجناس اسلافهم ويلقون التبعة عليهم كما يفعل اهل النار « قالت اخراهم لاولاهم ربنا هؤلاء اضلونا فآتهم عذاباً ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون وقالت اولاهم لآخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون » هذه صور المحاورات والمجادلات بين الامم المنحطة في الدنيا بالعيان والمشاهدة وما اخبرنا به التنزيل مما

يطابقه في العالم الآخر . وان شئت جلية الحق ومن المسؤول في الحقيقة فموعدنا الصبح في الكلام عليه اليس الصبح بقريب

﴿ اذن من المسؤول ﴾

لعلك أيها الأخ الشرقي عموماً والمسلم خصوصا تضاربت عليك الاقوال وتعارضت الحجج فأفل عنك نجم الحق وغابت عنك شمس المعرفة ولم تستخلص لنفسك مذهبا وسبيلا تسلكه وها نحن الآن نقص عليك ما عرفناه ونتلو عليك سورة ما فهمناه

ان ما سمعته من حجج طبقات الامة وأجناسهم وأولهم وآخرهم لم تخرج عن زخرف القول غروراً والجدل والخام الخصم وذلك من سوء السلوك وضلالة الفهم والكسل والجهل ولو انهم عرفوا ما هي الامة ولم خلق الانسان ولم وضع فيه العقل ولم كلف ولم خلق حراً عاقلا مريدا لم يقولوا الا الحق ولم يلجؤا الا الى الصدق . مثل الحكام والعلماء كمثل ضربه قدماء الهنود في رجلين أعمى ومقعد أدخلهما الناطور في البستان فأهلكا الحرث والنسل وآذيا الشجر الاعمى بقوته والمقعد بمعرفته فعاقبهما باخراجهما من البستان فماتا في الفقر من

الجوع والعري والظمأ

ذلك مثل الحكام والعلماء بل وجميع أفراد الامة من تاجر وزارع وصانع وجميع هؤلاء الطبقات يرجعون الى قسمين مفكرين وعاملين فالعلماء وكثير من الحكام من القسم الاول وبعض الحكام وبقية الامة من القسم الثاني وكل هؤلاء كأرباب شركة واحدة بل كجسم واحد مسؤولون ، وقفوهم انهم مسؤولون ما لكم لا تناصرون بل هم اليوم مستسلمون » .

أحسن مثال للامة جسم الانسان فناشدتك الله هل يغني الاعمى اذا ترك التعليم ان يقول ها أنا فاقد للبصر فالعذر لي في ترك العلم كلا فانما هذه حجة المهوسين الضالين وما أفراد الامة الا كحواس الجسم وأعضائه فالمفكرون حواسه والعاملون أعضاؤه ولكل عضو أو حاسة مزية تخصه كما ان كل فرد من الامة له عمل يليق به ويناسب فطرته ويستحسنه ويخالف فيه الاكثرين لتتم أعمال الحياة بسر الوحدة من الكثرة

علماء الامة كالعقل في الانسان وعمالها من صناع وتجار ومزارعين ومسيطرين قوامين عليهم كالقدرة وبهم جميعاً يكمل نظام الحياة

كل امرئ أوتى عقلا وفهما وتصرفا أمر بان يعمل بما يجب عليه لهذه الحياة لنفسه مع أبناء جنسه كما تدل عليه مواهبه الجسمانية وخواصه العقلية مما هو مشاهد معلوم محسوس . ومن أضل فهما وأنقص عقلاً وأقل أدبا ممن دميت أصبعه فترك أعضاءه كلها بحجة ان أصبعه دميت وغاب عنه انه عضو صغير في وسط جم غفير وجمع كبير من الاعضاء والحواس والمواهب

عرف ذلك الغربيون فأعد الفرد منهم نفسه ملكاً حراً مطاعاً في جنود أعضائه ورعايا جسمه فيرى بذلك انه أغنى العالمين وأقدرهم ولو فقد كل مساعد

جاء في التنزيل (كل امرئ بما كسب رهين) (يوم لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون)

يحتج المغلوبون على أمرهم بذهاب الامر من أيديهم جهلوا والله كم لهم من اختصاص وسيطرة وقدرة وعقول وقوى { لا يكلف الله نفساً الا وسعها } فكل مكلف على قدر ما أوتى من القدرة والعلم والسعة والاختصاص والمواهب

فملوك الاسلام وحكامهم واغنياؤهم وعظماؤهم وعلماؤهم وصناعهم وتجارهم وأطباؤهم ومهندسوهم كل مسؤول عن عمله [كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته]

أيظن الوغد الجاهل ان صانع هذا الكون يترك مواهبه كلها ولا يسأله عنها لسلبه موهبة واحدة كلا ثم كلا . ساء مثلا القوم الجاهلون . أيعتمد الرؤساء والعلماء والاغنياء في الاعتذار على ان الامر ضاع من أيديهم وفاتهم ان للسراج موضعاً ليس للشمس ومن ذا الذي يترك بيته مظلما احتجاجاً بان سراجه لا يضاهي الشمس اشراقاً ولا البدر ابراقا ولا النجم اضاءة ولا نور الكهرباء بريقا فهذه حجة الكسالى المتكاسين الضالين ألا فليجد كل مسلم وشرقي وليعمل بالنصيحة فان الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم

ليس النصح خاصاً بالعلماء أو الحكام بل يعم كافة الطبقات فلكل منهم شأن ليس للآخر ولن يغني أحدهم عن الآخر شيئاً على ان قصر اسم العالم على المتدين مجرد اصطلاح شائع ولكن المعقول ان كل من أتقن فناً فهو به عليم فمن أتقن فن الزراعة فهو عالم به وهكذا الرياضيون والطبيعيون والاطباء

والصناع كل عالم في فنه جاهل بسواه وعالم الدين يعرفه ويجهل غيره . ومن ذا الذي قصر تكوين الامة على علماء الدين كلا ثم كلا وهل تكون أمة حية في الوجود الا اذا بحثت في جميع العلوم

لعمري ان الطبيب وعالم الفلاحة يؤديان عملا لا ينقص قدراً عن عمل عالم الدين فكلاهما يؤدي فرض كفاية وفضل أحدهما على الآخر لا ينقص من قدره

كل فرد من متنوري الامة عالم بشيء جاهل بآخر مطالب بالنصيحة بما علم أيا كان مسؤول عن تحسين علمه أو صناعته لا فرق بين عالم ديني أو دنيوي كما في آراء أهل المدنية الفاضلة للفارابي والاحياء للغزالي فوظائف أعضاء الامة كوظائف أعضاء الجسم كل يمد الآخر ويستمد منه كأعضاء الهضم والدورة الدموية وأعضاء التنفس والدماغ والحواس والاطراف

من المشاهد المحسوس ان الجرائد العربية أثرت تأثيراً حسناً في الاعمال الخيرية وكونت احساسا جديدا للأمة مع ان اربابها لم يسموا في الاصطلاح علماء وقد علمت انهم علماء في الحقيقة بما عهد اليهم وقد أحسنوا فيه صنعاً بل هذه أجل

وظيفة للعلماء الرسميين وهؤلاء رجال الجمعية الزراعية قاموا بفرض كفائي وركن من أركان علوم الدين والدنيا فلهم جزاء عظيم في نظر الشرع بما عملوا (انا لا نضيع أجرَ من أحسنَ عملاً)

اذا غلبت الامم الجاهلة المنحطة على أمرها وأصابها حدثان الدهر فلتعد ذلك نعمة ولتقابله بالثبات في الاعمال والجد فيها بل تتخذه هداية لها في مستقبل الحياة وتسترجع مجدها كما فعل اليابان واليونان والتليان والامريكان وكما تقوى حاسة اللمس اذا فقد البصر والسمع وكما نرى أعضاء اليدين والرجلين واللسان والعقل تجد لارجاع بصر صاحبها الارمد

أحسن مثل ضربناه للامة فيما تقدم ان قلنا الامة انسان والحكيم رأسه والشجاع بأسه والمجتهد فكره والواعظ والصحافي لسانه والمحتسب سمعه وبصره والمقتصد اعتداله والعالم عظمه والعامي لحمه والصوفي دهنه والحاكم قلبه والتاجر عروقه والغني معدته الخلق جماله والصانع يداه والسائح رجلاه وهؤلاء كلهم عيال للحكيم العليم

فمن زعم بعد ما بيناله الآن انه عضو أشل فليتخذ لنفسه نفقاً في الارض كالثعالب والارانب والجرذان او سلما في السماء

فنيعتزل نوع الانسان وليعاشر الطير في الهواء مع الهباء - أيظن المسلمون والشرقيون انهم اول أمة أصابها حدثان الدهر كلا فالزمان أبو العجب وكم من أمة وقعت تحت سيطرة غيرها واتخذت ذلك سبباً لارتقائها . لا عيب على الامم المغلوبة على أمرها انما العيب كل العيب ان تفقد الاحساس وتيأس من الحياة وتظهر الجزع وتولول على ما ضي أيامها كما يفعله النساء والزمنى والاطفال

ليس لأحد من العقلاء عموما والمسلمين خصوصا حجة على كسله واتكاله واعتذاره الا فليقم كل امرئ بما عهد اليه وليعمل لنفسه ولغيره ان أمكنه

ليعلم الرؤساء والعلماء والاغنياء انهم أكثر سؤالاً اذا فرطوا وأعظم ثوابا اذا عملوا فالغنم بالغرم هذا أمر يشهد به الوجدان والعقل ويدل عليه النقل

(يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين واعتدنا لها رزقا كريما) وأشار الى ما هو كالسبب لذلك فقال (يا نساء النبي

لستن كأحد من النساء ان اتقيتن الخ) لمشاهدتهن أحوال النبوة الداعية الى زيادة العلم الناجم عنه زيادة الثواب والعقاب بالعمل والكسل

فالملوك مسئولون عن رعاياهم والوزراء عن نصائحهم والمديرون والمأمورون والكتاب والعمد عما عهد اليهم والعلماء مسئولون عن ارشادهم والصناع عن تحسين صناعاتهم ومجاراتهم الغربيين والصحافيون عن ارشاد الجميع وهكذا الاطباء والمهندسون والتجار والزارعون والاغنياء والشبان والشيوخ (لكل امريء منهم يومئذ شأن يغنيه)

﴿ خاتمة ﴾

« في جمال العالم ونظامه »

لما كان في كتابنا هذا شذرات من الفنون عامة مرجعها ثلاثة أشياء الجمال في العالم والتشويق للعلوم ونظام الامم أردنا ان نذكر ما يهيج النفوس ويبعث الشوق في أفئدة الناشئة النابتة في عصرنا بقول جميل يعبر عن شعور النفس بما تجده من جمال العالم وكيف جعل مناسبا لنظام الامم فكأن البهجة

أودعت فيه لتحث النفوس الانسانية على نظام المدنية مشاكلة لنظام العالم (ووضع الميزان أن لا تطغوا في الميزان) وكأن المطلع على هذه الرسائل الآتية ينظر العالم أمامه بمنظار معظم فقد جمعت لك أيها الأخ أحاسن الطبيعة ورونقها ولعمري لا يلذ بها الا المفكرون ولا يأنس بها الا المتعلمون . كلمات تشوق الجاهل للعلم وتقود العالم للفكر وتثير في النفوس حب الملاحظة والتمييز والمقارنة بين نظام الله في العالم ونظام الامم وكيف يتوصل من الامر الصغير الى الكبير وما المناسبة بين الجمال والعلوم وغير ذلك مما يلذ القاريء

ثم اعلم ان قارئي العلوم من الرياضيات والطبيعيات يلتذون بها لذة جزئية اذا فكروا فيها وفطنوا لها وكما ان كل كيفية من كيفيات الاجسام لها لذة خاصة بها فكذلك كل علم له لذة خاصة به وكما ان لذة الحلاوة والنعومة ورائحة الورد وحسن النغم وجمال الصورة اذا انفردت كل واحدة منها كانت ضعيفة فهكذا لذة كل علم اذا انفردت كانت قليلة وكما ان تلك الكيفيات اذا اجتمعن تضاعفت اللذة وقويت وابتهجت الحواس كلها بها كما في سرور الانسان بالانسان ، بخلاف الاشجار والاحجار

والحيوان انقص بعض اللذات فيها ، فكذا العلوم اذا اجتمعت وكونت منهن صورة واحدة في الذهن تضاعفت اللذة وقويت فأمكن التأثير بها كما في المقالات التي ينشئها أكابر الكتاب للتأثير بها على الامم بالوحي والالهام من مدبر الكون وكما ان الانسان اذا حضرته لذاته وتشاغل عنها لم يغنه ذلك شيئا ولم يحس بها فهكذا من قرأ العلوم ودرسها وحضرت في ذهنه ثم لم يفكر فيها فذلك لا يجد لها لذة ويصرف كل أوقاته في تحصيل ما يقيم جسمه ويشبع بطنه وعلى ذلك تجده اذا أراد اجتناء ثمرتها تصرف فيها بوجوه الجدال وجعل ما كان مناط اللذة والسعادة مهبط الجدال والعداوة وحب الغلبة والانتقام وهذا هو الانتكاس على أم الرأس فاياك واياهم فاعرض عنهم ولا تجادلهم أولئك الذين لم يغن عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من الله شيئا فاذا ترى الناس ثلاثة أقسام : من عدم لذة العلم : ومن ذاق لذة جزئية ! ومن التذ اللذة الكلية والقسم الثالث هم ورثة الانبياء المسمون حكماء

فان قلت ما السبيل الى ذلك وها أنا قرأت علوماً في المدارس . أقول

اني تأملت في هذا الامر فوجدت له سبيلين اثنين أولهما فن العلم الاعلى المسمى الالهيات فلعمرك ان هـذا الفن قد محى من الشرق فلا ترى له أثرا «ولقد سئل حكيم من حكماء المسلمين في هذا القرن من أحد الغربيين لماذا لم تخرج مدارس الشرق رجالا عظاما كمدارس الغرب » فقال لانهم لا يدرسون فن الالهيات . والسر في ذلك ان هذا الفن لا تستغني عنه أمة من الامم تريد رقي بلادها لانه يربط العلوم كلها بأصل واحد ويجعلها شجرة تتفرع منهـا العلوم كلها وهو يبحث عن الامور العامة والعوالم الخفية وكل ما له سيطرة واحاطة من المدبرات والمبدع الاول والانبياء ومن هذا الفن ان يحصروا العلوم كلها في عشر كلمات والكلمات في كلمة واحـدة حتى يقدر الانسان ويتعود على التصرف في الامور وارجاع الفروع الى الاصول واحداث الفروع من الاصول ويرى كأنه يشاهـدها كلها متصلة ملتئمة فتراهم يعبرون عن كل ما تراه من أجسام أرضية وسماوية وحيوان ونبات وجماد والجواهر الشريفة من النفوس والعقول « بالجوهر » ويدخل فيه علوم الطبيعيات بأكملها من وجه الا الصوت والضوء والكهرباء . وما يبحث عن الخطوط

وأشكالها والسطوح وأنواعها : وأحجام الاجسام ومقاديرها واختلاف أنواعها وما نشأ عنها من العجائب في المباني والحصون وهكذا ويعدون الاشياء فيقولون واحد اثنان ثلاثة الخ ثم يركبون بالجمع والضرب ويحللون بالقسمة والطرح ويستخرجون ما لا ترى العينان ولا يسمع الاذنان ويعبرون عن هـذا كله (كم) فهذه الكلمة تشمل الحساب والهندسـة والجبر والفلك وعلم النغمات والحركات والزمان ثم ينظرون الالوان والاصباغ والاضواء والمناظر وما يحس بالحواس الخمس من الكيفيات الملموسـة والمذوقة والمشمومة والمسموعـة والمبصرة وهكذا الملكات النفسية وغير ذلك ويسمونها (كيف) ويدخل فيها علوم الاصباغ والنقوش وكثير من الفنون الجميلة المستحدثة والصوت والضوء من الطبيعة أيضاً من حيث انها تحدث لذات في النفس . ثم ان هذه المخلوقات لها حال بحيث يتوقف احد الشيئين على الآخر كالابن والاب وكالاخ واخيـه وكالزوج والمعلم والمربي فكل تلك يتوقف وجود احدها على وجود غيره فالمربي لا بد له من مربي والزوج له زوجـة « ٤ » وما من موجود من الاجسام الاولى الا وله مكان ويعبرون عن هـذا

أين «٥» ويدخل فيه علم الجغرافيا وهذه الموجودات لا بد لها من زمان توجد فيه ويعبر عن هذا بمتى «٦» وهذا له اتصال بعلم التاريخ والفلك ثم ان كل موجود في أجزائه نسبة تحدث حسناً تارة وقبحاً أخرى كما في اشكال الحيوان والنبات والجماد فاذا تلائمت حسنت واذا تنافرت قبحت ويعبر عن هذا بالوضع «٧» ولهذا اتصال بالفنون الجميلة وهو بفن التصوير والنقش الصق

ومتى كان الشيء له آخر يحيط به وينتقل معه عبر عن هذه الاحاطة بلفظة ملك «٨» وبعضهم يعبر بها عما يملك في الداخل من عقل وعلم وحلم وفي الخارج من مال لحيوان وجماد وهكذا ثم ان الشيء اما ان يفعل في غيره كفعل الشمس في الماء والماء في الاشجار والنبات وهي في الانسان والحيوان ويسمى الفعل «٩» وأما ان ينفعل عن غيره ويقبل فعله كقبول الماء الاسخان والجاهل العلم والمريض الدواء وهكذا ويسمى الانفعال «١٠» فهذه عشر كلمات تدخل تحتها العلوم المتداولة بين الناس وتحصرها كلمة الموجودات الحادثة ولعمرك اذا قرأتها في الكتب لم تفهم منها ما فصلناه ولعرفت انه ما بقي من هذه العلوم الا رشحاتها

وفضلاتها واصبحت تلك الكتب طلاسم لا تفهم ولا تلذ القارئين مع ان هذا الفن لما له من السيطرة على العلوم يشوق النفوس الى نظام العالم ونظام الامم ومتى احاطت النفس علما بالمخلوقات ومبدعها والمدبرات والنواميس العامة اكتسبت قوة بها تنظر في شؤن الأمة . وهذا هو شأن الحكيم في كل امة ..... السبيل الثاني ان يقتدر الانسان على الانشاء بحيث يصوغ ما عرفه من العلوم في قوالب مختلفة ويضرب الامثال للناس وتكون العلوم اذ ذاك كانها آلة في يديه يصرفها كيف شاء فيدخل للعقول من ابوابها ولم ار كتاباً ينظم العلوم ويشير الى امثلة منها بضروب من الكلام في صور مختلفة كالقرآن فبينما تراه يصف الماء والجبال اذ انت تسمعه يصف الاثمار والاصباغ والالوان والانسان والحيوان وينتقل الى حاملي تلك العلوم وتراه يضرب الامثال ويهيج النفوس وهو لم يقيد بفن مخصوص ولا علم محدود كقوله (الم تر ان الله انزل من السماء ماء فاخرجنا به ثمرات مختلفاً الوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود ومن الناس

والدواب والانعام مختلف الوانه كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء)

وتجد القرآن مملوءا من مثل هذا وعليه درج الكتاب من كل امة والسياسيون والحكماء لا سيما الغربيون فانهم برعوا في هذا الفن فتراهم يثيرون عواطف الشبان ويهيجون اشواقهم الى العلوم بالقول الجميل في الانشاء والاخذ من احاسن العلوم وازهارها وبهجتها وهكذا يتصرفون في اساليب البلاغة والاستعانة بالعلوم عند ارادة رفع أمة او خفض اخرى ولما كان غرضنا تشويق الناشئة اتبعنا خطة القرآن في ذلك وضربنا الامثال لما يوافق الاذواق ويهيج النفوس اه

وقد جعلنا ذلك في خمس رسائل كما ترى :

﴿ الرسالة الأولى ﴾

﴿ اجلس معي على شاطئ البحر ﴾

(ناظرا للفلاح في حقله والشعب في جهله)

هل جلست ايها الأخ على شاطئ نهر يجرى ماؤه وتأتي جيوش امواجه متتابعة تلتمس الشاطئ كانها تصفق حاملة على عاتقها زبدا وكأنما الشمس وهي باسطة اجنحتها في الجو مرسلة

اشعتها الذهبية قد كسته خلعا من اللجين والهواء ينسج دروعا على اديم الماء وكأنما السماء والماء والهواء صفاء على صفاء على صفاء صور متعاكسة وانوار متلألئة وجمال فائق وحسن باهر

وكأنك ترى ببصيرتك قطرات البخار المتلاصقة تتصل اتصالا حقيقيا ببحر الهواء ، ذلك البخار الطائر في نواحيه ، بحر بين السماء والارض لا جسر له ولا قنطرة ولا مجرى سوى الاثير . نعم يحمله النسيم صاعدا في طبقات الجو يبرده في الطبقة الباردة فيزجيه سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله فاذا اصاب الله به من يشاء من عباده اذا هم يستبشرون

وهل لك ان تتأمل في ضوء الشمس وقد اثار بحرارته تلك القطرات الصغيرة من البحر المحيط بالكرة الارضية فصعده في الجو حتى يتبين لك ان الكرة الارضية محوطة ببحر واحد يتصل حلوه بملحه وكثيفه بلطيفه وجيده برديئه

وهل تحب ان ازيدك وضوحاً فاقول الم تعلم ايها الأخ ان دقائق الماء وجواهره الصغيرة المتراكمة حول الارض قد امتزجت بمقدار من الملح فاكسبها طعما لا يذاق ولا يلذ الا لما

سكن فيه والبخار والسحاب والانهار الحلوة كلها متصلة به

اصعد في وسط طبقة من الهواء الخالص مما يلامس سطح البحر بفكرك الست ترى انها متصلة به ملتصقة وجذب الحرارة الشمسية متواصل مرسل عرفا باسط اجنحته على سطح الماء قابض على ناصيته بيديه مخرج تلك الدقائق منه لا يفتر عن ذلك لحظة ولا يسكن دقيقة ثم ترى تلك الجبال الملونة بالسواد والبياض والصفرة والحمرة يتخللها سهول زرقاء تسير فوقك من مكان الى مكان تنزل قطرات متتابعات مقابلة لتلك الابخرة المتصاعدة حاملة للماء والبرد والثلج يتلألأ البرق في خلاله وعلى جوانبه « وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار يقلب الله الليل والنهار ان في ذلك لعبرة لاولي الابصار » فكأنهما جيشان احدهما صاعد والآخر هابط متواصلان دائبان ما دام الليل والنهار والشمس والقمر كما تتعاقب الملائكة كما ورد في الحديث « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار » وانت في كل هذا جالس في بحر من البخار او عائم في لجج اليم فتقاذف بك الامواج في بحر لجي يغشاه موج من

فوقه موج من فوقه سحاب . ترى البحر الحلو يغشاه الملح وهما متلاصقان فلا يكدر احدهما صفو الآخر ولا يناوئه « مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان » ولعلك مع ذلك تتفكر ان هذا البحر الهادئ سكون في سكون لا سيما اذا وقفت الامواج وسكنت الحركات وانقطع التصفيق وصفا الجو مع اننا باقل التفاتة نراه ممتلئا بانواع الاسماك المختلفة الاشكال والالوان والحدائق الغناء والصخور والجزائر والاشكال التي لا تتناهى . هذا ياسيدي ما يخطر ببالك هناك . ولعلك اذا سمعت ما تلوناه عليك رأيت في نفسك استغرابا وتعجبا وحيرة فترى منظرا جميلا يشوقك الى امر ربما لا يمكنك التعبير عنه كما يحصل عند سماع الموسيقى — وتظن كأنك خرجت من العالم واتصلت بافق آخر من عالم آخر وتجد في فؤادك لذة وحيرة لا نظير لهما

دع البحر جانبا وارجع بصرك الى ذلك الفلاح في حقله وتأمل ما ذا صنع . تراه اخذ يحرث الارض متفكرا فيما يؤول اليه امر معاشه دائبا طول يومه حتى اذا آذنت الشمس بالغروب رجع الى مكانته ومأمنه فاكل مما كسب ونام حتى اذا

طلعت الشمس اخذ يعيد ما صنع ويحكي ما فعل

ذلك دأب الزارع يكد فيأكل فينام يكد ليأكل ياكل ليكد او هي ثلاث حلقات كد فاكل فنوم

فاذا ترقيت عن ذلك قليلا رايت طبقات من الامة قد ارتقوا عن هذا قليلا ، فيما يزعم الزاعمون ، فوصلوا الى اعمال ارقى واخذوا يصلحون الامور العامة من الخفير الى الوزير ومن الكاتب الى الملك

ثم انك لو فكرت واعتبرت أحوالهم لم تجدهم في الاعمال سواء

من القوم من سمت به همته الى ان جعل العلوم مقدمة لعلو شانه وامته ومنهم من جعل العلوم والوظائف سلما للحياة التي لم تخرج في معناها عن حياة ذلك الفلاح في حقله وان اختلف الشكل فهو عامي مجسم وجاهل مكبر. الله اكبر الست تراك حين خرجت من الفكرة الاولى واغتصبنا خيالك والفكر من اطلاق مجال البحر والهواء والسحب الى سجن الاعمال وضيق المجال رايت في النفس اثر الاكدار باديا وطابع الانزواء حاسرا قاطعاً للنفس

قارن الفكر الاول بالثاني واطلاق حركات العوالم وجمالها وضيق الاعمال الحيوانية وتزاحمها وتراكمها تعلم انك انت السيد في الحالين ورب الدارين وسيد العالمين تشرف تارة على عالم الجمال وهو الفكر واخرى في سجن اقفاص الحياة الحيوانية فمرة ملك كريم واخرى في مرابض البهيم اطوارا مع الملأ الاعلى وطورا مع الشيطان الرجيم

هنا تجد أيها القارئ في خيالك حيرة وتراك مشرفاً على حالين متناقضين وتقول أسلوك سبيل الاطلاق أولى بالانسانية أم التقييد

اذا ولعت بالعلوم وعشقت المعارف وتطلعت الى جمال الطبائع فهل أكون أديت واجب الانسانية وكم من فتى يدعي هذه الدعوى ويهرف بما لم ينظم مدينة ولم يرق أمة ولم ولم

وان اقتصرت على أحوالي المعاشية وولعت بالمكاسب وحدها لم أجد الا حالا ترجع الى الحيوانية

ولكنك لو راجعت تواريخ الامم وطالعت ما عليه حكماؤهم لعلمت انه لا يؤدي حق خدمة الانسانية الا من ولع بالأمرين فعشق العلوم لجمالها وأطلق لنفسه سراح الفكر حتى

ارتسم في ذهنه قوانين ما يحيط به ثم رجع الى أمته وفكر فيما يرفعها فهناك تتجلى له صورها وود لو يقدر ان يرفعها من وهدتها الى ذروتها فان كنت في شك من ذلك فاسأل حكماء الاسلام الاولين كالغزالي وابن سينا والرازي وغيرهم أو ان شئت فاقرأ تواريخ علماء أوروبا في هذه العصور تجد رجالا رقوا أممهم بابحاثهم في هذه العوالم أولا فتتربى لهم ملكات بها يرجعون الى أممهم فيقومون معوجها ويكملون ناقصها ويهدونها الصراط المستقيم في أعمال الحياة

ياسيدي محال ان ترى أمة تترقى أو فئة تعلو الا برجال تظهر فيهم مباديء عشق هذه العلوم أولئك هم الذين يقودونها الى الكمال

وهل يعقل ان من يدرس الطبائع في قوانينها والافلاك في سيرها وهو لم يذق لها طعما ولم يصغ لها سمعاً بل كلما سمع نغمات الافلاك وطنين الهواء وحنين الرعود ظنه منادياً ينادي هوى النفس وشهوات الاكباد فهل مثل هذا يرفعه علمه الا الى أمله أو يرقيه الا لما قصد وهل من قضت عليه حياة حيوانية يرقى عنها الى نفوس قدسية حرام علينا ان نربي أبناءنا هذه

التربية الحالية الخالية من شائبة التشويق والترغيب لذات العلوم وتكميل النفوس

لم نقرأ كتاباً من كتب الامم المحيطة بنا الا ونراه حاثاً على التشويق للعلوم بطريق ذكر جمالها ولذاتها وحسنها مما يناسب أفكار الاطفال لا مجرد ذكرانها تنفع الامة وتعلي المناصب فان هذا يجعل مكانتها سطحية وتكون غشاء رقيقا يشف عن جهل واضح وغش فاضح

ليس قادة الامم في الاعصر المختلفة أولئك الملوك والامراء كلا ولكن قاداتهم أولئك الحكماء الذين يأخذون أشكالاً مختلفة باختلاف الازمنة والامكنة فتارة يقال ربانيون وأخرى حكماء وآونة محررو جرائد وغير ذلك من الاسماء

وبالجملة فان أي أمة لم تجد في شبانها نشأة تعشق العلم لذاته بترغيب المعلمين وتشويق المشوقين تشويقاً نفسياً يدخل مع النفس أينما حلت ويرحل معها أينما ارتحلت فأنذرها بالزوال من الوجود

ذلك الشوق هو الذي يجعل المرء مشوقاً الى العلم في غناه وفقره ومرضه وصحته وكبره وصغره وخلوته وجلوته وسائر أحواله

وأوقاته ولعمرك ان مثل هذا لا يعمل عملاً الا وهو فيه من المخلصين لا يريد الا الخير ولا يحب الا الكمال

وأول ناشر للتشويق للعلوم هم الانبياء ثم خلفاؤهم والحكماء الناهجون مناهجهم فان قعد هؤلاء عن التشويق بطل أثر النبوات من الارض وانفصم حبلها من الامم وضعفت الهمم وماتت العزائم . اللهم ارزق أمتنا رجالاً مخلصين يشوقون الشبان الى العلوم بسائق الشوق الى جمالها ليكونوا نافعين مخلصين

﴿ الرسالة الثانية ﴾

« النغمات والعلوم »

ما من امرئ من نوع الانسان الا ويرتاح لسماع جميل الاصوات وبديع النغمات وأحاسن الاوزان وبهجة العيدان من أي طبقة من طبقات الامة في أي مكان على سطح البسيطة بل يشمل الحيوان وربما عم النبات كانه كتب على ألواح النفوس النامية ذات الحياة ان تستلذ ما تسمع من رقيق الاصوات وجميل الاوزان ذلك لعمرك لا يحتاج الى برهان سوى ان تحل عن قلبك ربقة المشاغل وتجلس بجانب نهر تلاطمت أمواجه وصفقت

أمواهه وتصغي بسمعك وتتأمل بحدسك وتدخل كهرباء ذلك الخرير الى الفؤاد تجده يسامرك ويحدثك ويناجيك وقد وضع ثغره في أذنك وناجاك بما لم تر العينان ولم تسمع الاذنان ولم يعبر عنه اللسان ولم يكتبه البنان بل ذلك شعور خفي وسرور قلبي وأمر وجداني يحس به الجنان ويعجز عن الافصاح عنه اللسان يدعوك الى ما تميل اليه طباعيك من الخلال على حسب طبقتك من الامة ودرجتك من العرفان وسبيلك من الآداب وشعورك بهذه الحياة ولعمرك لئن كنت من الطبقة العليا من الذين عرفوا قيمة الحياة الدنيا وما مآلها وما المقصود منها وانها ساعات بكر وأوقات تمر وان هذه العناصر تتلاشى وتفنى وان الباقي انما هو عالم الجمال والكمال والعلوم والعرفان فلا جرم تشوقك نفسك الى ان تجوس خلالها بفكرك فتنظر في تحليل الماء وان أصله عنصران بسيطان هما الأوكسيجين والايدروجين وهناك نسبة بينهما محققة عجب وألف عجب من هذه الحكمة الباهرة نرى ان بين الاوكسيجين والايدروجين نسبة غريبة فذرة من الاول وثنتان من الآخر تمثلان شكل الماء يستوي في هذا الوشل الصغير والنهر العظيم والبحر الكبير كلها ياصاح امتلات ماء

بهذه النسبة التي لا تتغير ولا تتبدل من ابتداء خلق الدنيا الى ان ينقرض العالم ولقد اوضحنا هذه النسبة جدا في كتابنا المقالات الجوهريه اليس هذا بعينه هو النسبه الموسيقية التي هي الحركات والسكنات المنتظمات الموزونات وتأمل مرة ومرتين والف مره في نغمات الموسيقار وانها ان لم تتزن حركاتها وسكناتها لم تقع الموقع عند القلوب ولم تصادف من النفوس اقبالا ولا من العقول مجالا فهذه نسبة كنسبة الاوكسيجين والايدروجين فالنسبة الموسيقية في الاصوات تلذ الاسماع والنسب الهندسية الموسيقية في الماء تلذ العقول فانظر كيف اتحدت النسبتان وتقارن الوزنان وجمل المعنيان تحليل المواد العنصرية والاصوات الهوائية لذة العقول بالاولى والارواح بالثانية فانظر كيف دعى الصوت وجماله الى العلوم وبهائها والحكمة وكمالها. ولئن سموت عن هذا قليلا واخذت ترتقي في النباتات وسمعت نغمات الهواء في الاغصان تمثل لك في خيالك ما ابدع مصور الطبيعة في خلالها من حكم ابداعها وجمال اتقانها وكان النسيم اذا هب على الغصون ومال بالصبا او بالقبول والنكباء والشمول وتمايلت الاغصان طربا وصفقت الاوراق عجبا وتيها قالت لمن يليها اذا صفت نفسه

هل لك ان تطلب ارقى اللذات واسماها واشرفها واعلاها فيعرج في سماء عالم المثال ويتأمل كل لذات العالم فتجدها هباء منثورا فيروح الى أعلى لذة فيها ولا يجد سوى شيئين اثنين بقاء نفسه ورقى أمته ولئن حصل لك هذا الشعور الذي : لا يكون الا للانبياء والحكماء وعقلاء الامم فلن يخطر ببالك ولن يرسم على صحائف ضميرك الا نقوش العلوم والعرفان اذ يتمثل لك العالم كله كأنه حاضر امامك ، والله من ورائهم محيط، ثم شخص أمتك وتمثلها بين عينيك وتدعوها الى رقي ما رقيت اليه فتدعو حثيثاً الى الاخذ بناصرها وتهذيب شبانها وتربية اطفالها وتجد نفسك ممثلا ذلك كله وكأنه مصطف امامك صفاً صفاً قرناً بعد قرن فيما يأتي من الزمان وهم يعرجون الى المدنية الحقه ذلك هو الذي يلوح لحكماء الامم اذا سمعوا النغمات وهبوب النسمات في اوقات الفراغ حينما تتزين لهم الطبيعة وتميط نقابها وتتحلى كعروس تتجلى وتظهرها النغمات بابدع شكل واجمل بهجة وكأنما ذلك الجمال يدعوهم الى اقصى ما يرومه الانسان . ذلك وايم الحق ما تسمو اليه النفوس الشريفة والقلوب الصافية والارواح العالية وهل انبأتك الرياح الذاريات

في دباجي الظلمات وهمست في ضميرك وعبرت عما فعلت بعاد « سخرها عليهم سبع ليال وثمانية ايام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم اعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية » هذه همسات الرياح ونغمات الصرصر العاتية تحدث حكماء الامم المنحطة في المدنية انهم ان اهملوا شؤونهم ابادتهم مدافع المتمدينين ومكسيم العلماء والامم الراقية الحية فالريح تنذر بالخراب تارة وتبشر بالعمران أخرى تأتي بالمتضادين وتبشر بالامرين هكذا شأن نفوس مصلحي الامم وناهيك بالسيد العظيم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كان اذا هبت الرياح اصفر لونه وتغير وخاف ان يكون الهلاك والدمار بأمته كما فعل بعاد ولعمرك ما ذلك الا صفاء السريرة والنور المودع في قلبه حتى انه ليمغطسه حفيف الاشجار وخرير الانهار ويزعجه ويلقى في قلبه الرعب هبوب الرياح العواصف . قصد بذلك صلى الله عليه وسلم ان يثير عواطف عقلاء أمته الى صفاء النفوس ونظام المدنية التي ان لم يؤخذ باحسنها رمت بالقوم الى ادونها وساء مصيرها واصبحوا لا يرى الا مساكنهم ولا ينشل الامم من تلك الوهدة الا العلوم والمعارف اما اولئك الاحداث والجهلاء

والصبيان ومن نحا نحوهم من غوغاء الناس فاولئك يميلون الى خسائس من الشهوات على مقدار عقولهم ولا تكون تلك الفكرة لهم الا من فلتات الطبيعة وتظهر لهم (كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً) او (كمثل الذي استوقد ناراً فلما اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون) اما الحكماء فاغلب افكارهم وقت فراغهم تلك الفكر وحدها فاذا نابتهم النوائب انسوا بالمدركات الحسية والخسائس الجثمانية كأولئك الجاهلين ثم يثوبون ويؤوبون ويرجعون ويقولون (ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار) هذا انما نقوله عن وجدان لا تقليداً لمن سبق او تنسيقاً في المقال انما هو الوجدان الوجدان وهل لك ان تنظر فوق الغصون طيورها وقد سجعت بالحانها ودلت على أميالها وذكرت الفها ومن لك ان تقرأ ما ذكره علماء العرب في الموسيقي وان الاولين من الحكماء السالفين أخذوا الضروب الثمانية في ذلك العلم عن الطيور ونغماتها ووجدوا تلك النغمات الصادرة من اولئك المسبحات الصافات اللاتي يطرن في الهواء ويسبحن في الفضا ويغردن في الجنات لها أصوات موسيقيه

فاخذوا كل صوت عن طير منها ووجدوا حركاته وسكناته ينسب حسابية هندسيه وهاك صوتاً واحداً منها لتقيس عليه ما سواه نظر فيه العلماء واستنتجوا منه صوتاً يقال له الماخوري عن الفاختة وهذا صوتها ككوه كوه ككو كوكو فانظر يا سيدي كيف كنت نغمات هذا الطير من حركاتها وسكناتها نسبة تأليفية هكذا نسبة سبعة الى خمسة كنسبة أربعة عشر الى عشرة كنسبة ثمانية وعشرين الى عشرين وهذا هو سبب اللذة وكأنما تعبر هذه عن اتقان شكل الطير وتفهم رمز ما احتوت عليه من الحكم الغريبة والتراكيب البديعة والنسب الهندسية اللطيفة التي شملها جسمها فاعربت عن ذلك الجمال المعنوي وأوصلته الى اسماع الاناسي واليه الرمز بقوله تعالى (يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ان هذا لهو الفضل المبين) وقد الفت النغمات تقليداً لما في الطبيعيات ومن العجب ان علم الشعر موسيقي وهاك الاوزان الستة عشر التي استنبطها الخليل فكلها نسب موسيقية حسابية هندسية كنسب العناصر الداخلة فى تركيب الماء والهواء وكحركات نغمات الطير والموسيقي وهل لك ان تسمع أشهر بحر منها وهو الطويل

لتقيس عليه ما سواه (فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن) مرتين فترى ان هذا البحر هكذا نسبة سبع متحركات الى خمس سواكن كنسبة أربعة عشر الى عشرة كنسبة ثمانية وعشرين الى عشرين فيكون البيت الواحد ثمانية واربعين فانظر كيف اتحدت هذه النسبة الشعرية الانسانية الموسيقية الحسابية الهندسية مع تلك النسبة التي غرد بها الطير فوق العيدان وركب بها الماء في الانهار واتحدت بها العناصر في الاكوان فما أعجب العلم وما ألذ الحكمة ومن لي بأن تذوق الشبيبة هذه النسب السارية في الكائنات أجمعها ويحصلوا العلوم ليعرفوها ويا ليت شعري من الذي علم الطيور الشعر وهل قرأ لهم الخليل فن العروض وما هذه المناسبة بين أشعار جميع الامم ونغمات الطيور وكل شعر في العالم بهذه المثابة في الاوزان مهما تباينت اللغات واختلفت الاشكال وتمايزت الاوضاع ولعلك من هذا تفهم (ووضع الميزان) و (شهد الله انه لا إله الا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله الا هو العزيز الحكيم) ولقد شاهدت فيما قلناه تحقيق قوله (وكل شيء عنده بمقدار) وقوله (وهو اسرع الحاسبين) وقوله (انا كل شيء خلقناه بقدر وكفى

بنا حاسبين) و (كل شيء أحصيناه) وقس على ما سمعته ما لم تسمعه من الاوزان العربية فتأمل كيف كانت الموسيقي مجالا للعلم والحكمة ولا عجب اذا غفل عن هذا الجاهلون ويا ليت شعري من يسمع شبابنا هذا النداء ويريهم هذا الجمال حتى يعرفوا ما هي اللذة في الدنيا وما فيه حياتهم وما هي وما الذي يقودهم الى ترقية نفوسهم وشرف مدنيتهم وهيهات ان يفهم الغافلون . ولعمرك لم تؤلف نغمات العيدان وأصوات المزاهر بالمثاني والثالث الا على تلك النسب الهندسية الحسابية المحكمة الوضع والتناسب ولولاها ما استلذت الاسماع ولا مالت الطباع ولا حسنت الاوضاع بل تفرقت القلوب ونفرت النفوس لذلك كان علم الموسيقي يأتي مع جميع العلوم من الالهيات والطبيعيات والرياضيات وهو المعبر عن نهاية جمال الطبيعة وحكم الخالق عز وجل وكان الكرة الارضية وهي تزف حول الشمس والاصوات الموسيقيات تزفها صباح مساء عروس تجلت في حلاها ولما عجزت عن النطق والافصاح عما تستعد له من التحليل والتركيب والتصوير والبدائع على دوام الدهور والعصور الذي لا نهاية له ولا غاية لمداه ارادت ان تفهمك

ذلك بتلك الاصوات وان فيها من العجائب ما لا يقدر على حصره اللسان واذاً يصدق عليها قول بعض الحكماء ان النغم فضل بقي من النطق عجزت النفس عن استخراجه بالكلام فابرزته بالصوت. فهكذا الكرة الارضية أجمعها استعدت لما لا يتناهي من الصور والاشكال فابرزته في قالب خفيف الاشجار وخرير الانهار ونغم الموسيقار . اذا فهمت ما تلوناه عليك واصغيت بقلبك اليه وان بين عالم الاصوات ونغماته والعناصر وتركيبها تناسباً هندسياً واحداً لولاه ما تناسبت الصور ولا النغمات عرفت قول حكيم اليونان (العالم موسيقي) وهذا قول لا يفهمه الا دارسو العلوم (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون)

﴿ خلاصة هذا القول ﴾ الموسيقي قسمان. موسيقي العامة. وموسيقي الخاصة . فالاولى هي الالحان المطربة . والنغمات الموزونة التي يسمعونها ولا يفهمون لها وزناً ويشترك فيها الانسان والحيوان

﴿ ثمرتها ﴾ الاخذ بعقول نابتة عصرنا وشبانه الى سفاسف الامور والتدلي بهم الى حضيض النقص يدعون كذباً وزوراً

انهم مدركون ولا وربك انهم لا يشعرون

والثانية الخاصة. كل ما أحكم وزنه ووضع بنسب هندسية من اصوات وصور من الحيوان والنبات والانسان والكواكب والافلاك وما في الارض والسماء بل كل جمال وكمال في هذا العالم والمدخل الى ذلك الحساب . والهندسة . والجبر. والفلك والطبيعة. والكيمياء. وعلم النبات . والحيوان . والانسان. وبالجملة الرياضيات والطبيعيات والالهيات وليس القصد ان يعرف هذه العلوم تفصيلا بل يعرف من كل فن طرفاً فاذا ارتسمت هذه الفنون في نفسه وفكر فيها واعتبرها فناً واحداً كانها شجرة أصلها ثابت في ذهنه وفرعها في السماء فلا جرم تؤتي أكلها كل حين باذن ربها وتراه يطالع جمالها المرسوم في صحيفة خياله ويتيقن ان هذا العالم كله موزون وزناً حقيقاً ويفهم اذ ذاك ما رمز اليه القرآن من الوزن والميزان والقسط وحينئذ يكون في لذة لا تحتاج الى آلة ولا موسيقار بل هي معه اينما ذهب وحل وارتحل فاينما فرغ من اشغاله يجدها معه لا تفارقه فاذا مات دخل جنة عرضها السموات والارض اعدت للمتقين ومن هذه صفته يكون كل ما وقع تحت حواسه من مسموع

ومشموم ومبصر ومذوق وملموس وهكذا كل ما دخل في خياله وعقله من الصور والاشكال والعلوم والمعارف «موسيقى» يطرب بها ابد الابدين ودهر الداهرين

على نفسه فليبك من ضاع عمره

وليس له منها نصيب ولا سهم

﴿ ثمرتها ﴾ بهجة النفوس وكمالها. وترقية الامة وتمدينها اه

﴿ الرسالة الثالثة ﴾

﴿ جمال النجوم وترقية الامة ﴾

كل ما تراه امامك من جوهر او عرض لا بد له من فوائد تقل وتكثر على حسب مرتبته في الوجود ولا جرم ان الجمال في العوالم من الاعراض الجاذبة للنفوس الشارحة للصدور المنبئة عما وراءها من المنافع الحقيقية كما يستدل في الفراسة بالحركات والسكنات وبملامح الآشارات على الاخلاق والعادات ويجعلون ذلك رموزا تتجلى لذوي البصائر « ان في ذلك لآيات للمتوسمين»

﴿ تأثير مشاهدة النجوم ﴾

الجمال في المحسوسات مراتب بعضها فوق بعض واجمل ما تراه بهجة النجوم وجمالها فتتأثر النفس بذلك وتستبق الى

البحث والتدقيق عما وراءه فتراهم ينظرون في الليالي التي راق سماؤها وصفا اديمها وينظرون ذلك التلألأ والجمال والبهجة والاشراق فكان ذلك جاذبا لمعرفة السنين والشهور وبها ينتظم امر معاشهم فانظر كيف كان ذلك الجمال داعيا حثيثا الى منافع الانسان وهو لا يشعر بحسن هذا النظام ومنافعه (اقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم)

﴿ المراصد ﴾

كل ما يشاهده العامي بالنظر السطحي ياخذه العالم فيرقيه من حضيض البساطة والنقص الى اوج التركيب والكمال . نظر العلماء في الفلك نظرا ادق واسمى فرفعوا الرصد من السهول الى ابنية مرتفعة ليعرفوا اسباب السموات من اعلى الاماكن التي صفا جوها وطاب نسيمها وصح مناخها ووضعوا تلك المنظارات المعظمة والمقربة لتتجلى تلك الصور البهجة بمنظر ارقى واجمل .

ذهبت آنفاً الى دار الرصد بالعباسية فقابلني الراصدون واكرموا وفادتنا بما يشف عن جمال النجوم وبهجة القمر ثم شاهدته وقد كبر عن المنظر المعتاد وظهر تكوره وصار اكثر

تلألؤاً واجمل بهجةً وامتازت مواضع بالاظلام تحيط بها انوار واضواء وتتوسطها منابع من النور بالوان بنفسجية وبيضاء فحمراء من المراكز الى المحيطات مع بهجة وحسن

تامل ترى تلك الظلمة المنخفضة وحولها ذلك التلألؤ يبهج الناظرين وفي وسطها ذلك النور اللامع البهج الذي قدمنا وصفه — لعمري انه لمنظر شائق رائق يسر الناظرين ويبهج المفكرين وهكذا رأينا الزهرة بالعين المجردة ويسميها العامة « فريحه » ثم شاهدنا المريخ فما اجمل تلك المناظر وابهجها ولقد وصل حسن الاتقان بواسطة علم المناظر من علم الطبيعة والآلات المقربة والمكبرة من العدسات البلورية المحدبة الاشكال المركبة من الرمال والرصاص واجزاء اخرى طبيعية الى احداث ما لم يكن بالحسبان حتى اننا شاهدنا نجما من نجوم الاسد وقد علم في جداول الرصد الدقيقة والثانية التي يمر فيها بالمنظار وما حان الوقت المعلوم الا واسرع الى ذلك الفتى الموكل بالرصد وقال انظر فشاهدتها تجري متحركة عكس الحركة المعلومة مع جمال أبهج من القمر وان قل ضوءها عنه لبعدها اذ جمالها من نفسها بخلاف القمر وما زالت تلك النجمة تعدو امامنا من

شعرة من الشعرات الخمس هناك الى اخرى حتى قطعت تلك المسافة في اقل من دقيقتين كما اخبر بذلك الراصدون من قبل.

ومعلوم عندهم ان سير النجوم منتظم جدا فلذلك يضبطون الثواني على مرور تلك النجوم بالنظارات الموضوعة في خط نصف النهار المار بالرصد بل بنفس تلك الشعرات الدقيقة طبعاً المكبرة صنعاً « صنع الله الذي اتقن كل شئ »

﴿ نظر العلماء والمنافع العامة ﴾

فانظر رعاك الله كيف ارتقى العلماء في نفس النظر السطحي عن العامة كيف لا وقد نظروا نظرا اسمى وتأملوا تاملا ارقى فظهر لهم الجمال في ثياب ابهج ووضوح اتم ولعمر الحق ان ذلك النظر الظاهري لا يغني شيئا ولو اخذه الناس ملهى لهم لكان ذلك عبثاً وباطلا ولذهبت تلك الحكمة سدى واصبح العلماء والجهلاء سواء واضحت تلك المناظر معطلة في الوجود

ترى علماء الشرق في القدم ايام شباب الدولة العباسية وما بعدها تتفاخر بتلك الابنية لمجرد اللهو واللعب : وهل ضل علماء الغرب الآن بتفانيهم في تشييد تلك المباني ومشاهدة ذلك الجمال : كلا ثم كلا

قسم العلماء قديما الكرة السماوية الى اثنى عشر قسماً وسموا كلا باسم وهي البروج التي تنتقل فيها الشمس والقمر والكواكب كافة من ابتداء خلق الدنيا الى يوم ينقضي هذا العالم وهذا مبدأ العلم ومنه تفرعت فروع وقد اخذت الدول تتنافس في ذلك الحساب الدقيق ولن ينتهي الا بوقوف الافلاك

ذلك هو نظر العلماء الذين سموا العلم الذي يبحث عن الاجرام السماوية وسيرها العمومي (الهيئة) وما يبحث عن الاوقات بالتفصيل كل يوم وشهر وسنة (بالفلك) فالهيئة هي العلم الاجمالي والفلك هو التفصيلي فنسبة الفلك الى الهيئة كنسبة علم القوانين والحقوق الى علم الاخلاق او كنسبة علم الانشاء الى العلوم العربية

﴿ ثمرات النظر للأمم ﴾

فانظر سيدي ما ترتب على ذلك النظر . اجل قد ترتب عليه ان جميع اعمالنا كاوقات المطالعة والعبادات وسير السفن في البحار ونظام كافة اعمالنا متوقف ولا مشاحة في ذلك على تلك الكواكب . يا للعجب اين الثريا واين الثرى واين نحن من تلك الاجرام العالية

الشمس والقمر والكواكب تأتي لنا باشعة تحمل حرارة وضوءا . فالحرارة تنمي اجسام النبات والحيوان والانسان وتبخر الماء وتكون السحب وقصارى القول ان كل حركه في هذا العالم من الحرارة .

والضوء لاضاءة الطرق لتجلى الاشياء لنا ونهتدي في طرق هذا العالم المظلم طبعا فنها مصدر هذه الحياة والحرارة والحركة وبها الاهتداء في الطرق ليمكن الحصول على قوام هذه الحياة وهذان لا يحتاجان الى الارصاد والاتعاب. وبيت القصيد هو ذلك الحساب البديع العجيب الذي بني عليه سيرها ولعمري ان هذا لاجل من ان يصل اليه من ينظر بالعين في السهول والمراصد فتعالى ذلك الحساب وجل عن الابصار

وياليت شعري كيف كانت هذه الكرة الارضية بسيرها اليومي والسنوي والقمر بدورانه والشمس والكواكب تهدينا الى حساب اوقاتنا ونظام امورنا

اعرني ايها القارئ التفاتة واصغ لي سمعا انت تعلم ان هذه الكرة الارضية عظيمة الجرم كبيرة الحجم فتأمل كيف

كان سيرها وما حولها منظما حتى نظمنا عليها اعمالنا ومعيشتنا جل العلم جل العلم

وهل دار في خلد احد يوماً ان هذه الكواكب عبارة عن ساعات منتظمات تدور في هذا الفضاء وكيف تكون هذه الاجرام ساعات منتظمة ما اجهل الانسان

حاول الانسان طول عمره من ابتداء الخليقة ان يصنع ساعة لا تقديم فيها ولا تأخير فكان آخر صنعه ساعة تتقدم او تتأخر بانتظام ثانيتين اما وجود ساعة لا تقديم فيها ولا تأخير فمحال واي محال

وكيف كانت هذه الاجرام العظيمة دقيقة السير مع هذا الكبر الهائل والمدار الواسع والزمان الطويل وهذه الساعات التي بايدينا مع شدة صغرها قل اتقانها وعجز الانسان عن اكمالها وهل دري من ينظر في ساعة ليلا ونهارا انه يحمل نموذجاً من عالم الكمال ومختصر حساب سير الارض والاجرام السماوية

افق ايها الشرقي من سباتك العميق وتأمل واقرأ جداول الحساب الذي وضعه الفلكيون كل سنة واقدح زناد فكرك تعلم انك تحمل معك كرة تمثل لك سير نظام العالم باسره (هو

الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون)

﴿ وحدة النظام والفلك ﴾

اذا مرت الشمس بخط الزوال في مصر وقفت التلغرافات عموما في قطرنا وضرب المدفع في القلعة المصرية بواسطة الكهرباء المتصلة من الساعة الدائرة بالعباسيه التي تتصل بجميع فروع التلغرافات ووصل الخبر الى بور سعيد والثغر الاسكندري والخرطوم وسائر المحطات في البلاد بالكهرباء التي قامت في جسم الارض الصلب المندمج مع بعد المسافة مقام الضوء الذي يأتي من الكواكب مع ثنائيها وبعدها في الفضاء .

انظر كيف ينظم به سير الفلك في اليم واصبح علم الفلك والكهرباء كروح منظمة لجسم وحدة المجتمع الانساني

تعاهدت الامم واتحدت على الاشتراك والتعاون في الاعمال العمومية والكهرباء وحساب الفلك ساعدان مساعدان وكانهما دماء في مهجة جسم العالم . قال الحكماء العالم كله جسم واحد يروح ويغدو بتدبير عام والكواكب كلها كاعضاء له ولقد

صدقوا فان هذه المشاهدة تدل على وحدة النظام فما العالم الا كانسان واحد وحيوان واحد يسير بتدبير واحد

﴿ استنتاج الامور العظيمة من الصغيرة ﴾

فلينظر العاقل فيما حوله وليتأمل كيف وصل الانسان من النظر السطحي لجمال النجوم ومن المعرفة البسيطة لامور جزئية كالشهور والايام والليالي الى الرصد بالمنظار المقرب والحساب الذي عليه مدار نظام وحدة الامم كالتجارات والمخابرات والسفر براً وبحراً وغير ذلك مما يطول شرحه — وما اعجب هذا كيف حفظت به الكواكب من التصادم في تلك السموات وهكذا القطارات والسفن في البحار من الهلاك واحتيج الى حساب تلك في سير هذه

﴿ الفطرة الانسانية والمناظر الطبيعية ﴾

اذا تأملت فيما ذكرناه تعلم مقدار الاتقان في هذه الطبائع وتفهم كيف كان الجمال في الكواكب مقصود التشويق الناس الى العلوم والمعارف ولا جرم ان الفلك يستدعي الحساب والهندسة والجبر وبعض العلوم الطبيعية كالمناظر والكهرباء وان شئت فقل العلوم شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء

تؤتي اكلها كل حين فكل علم فرع من فروعها واعلى غصن منها هي السماء وكواكبها. علمت الامم ذلك فشوقوا ابناءهم بذكر ذلك الجمال في الكتب الصغيرة حتى انك لا تقرأ كتاباً من كتب القوم الا وترى أثر جمال الطبيعة ظاهراً في صفحاته معرباً عن جمال مبدعه مما كنا نسمعه من وراء حجاب ونظن ان ذلك عندهم من فلتات الطبيعة اذا هو لديهم من أقوى أسباب التقدم والنجاح واذا تأملت ما قالته احدى الفتيات الانكليزيات السيدة (فولين) Mrs follen في قصيدة لها تحث الفتيان والفتيات على درس العلوم من الوجهة الفطرية تعلم مقدار ما وصل اليه القوم في طريق التعليم قالت بالانكليزية

Dear mother how pretty
The moon looks to night
She was never so pretty before
Her two little horns
Are so sharp and so bright
I Hope she, Il not growany more

ولا نطيل بذكر الشعر كله وهاك ترجمته

أمي العزيزة هذا الليل قد ظهرا
فيه الجمال بديعاً فانظري القمرا

ولم تكن هكذا من قبل بهجته
بدا كقرني رضيع الشاة حين جرى
محدود بان اضاء امثلما شرقت
سمر مثقفة في كف من شهرا

ليتني اعرج الى السماء واتربع في دست القمر واجلس في وسطه ممسكة بقرنيه الدقيقين وياليتهما لا يغوان مبتهجة بك ياأمي وبصواحبي الفتيات اذ يهتز بي اهتزاز الارجوحة وأمسه بلطف كما سترين . هناك أرى السماء والنجوم واطوف حول السحاب وادخل في خلاله فاذا حاولت النجوم ان تقف في طريق أمرتها بالتنحي عنه لتخلو لي السماء الجميلة وتكون تلك الليلة بهجة وسلاماً حتى مطلع الفجر واعرف أين يذهب القمر الجميل ثم امتطي قوس قزح واكر راجعة الى منزلنا اه بتصرف

فانظر أيها الاخ الشرقي كيف تخيلت تلك الكاتبة ان تدخل باللطف وحسن التخيل على افئدة الفتيان والفتيات بالتشويق من طريق الألاعيب الى ذلك العلم النفيس بل هذا القول يحث على تعلم الطبيعة لما فيه من ذكر قوس قزح والسماء والسحاب والضياء فياحسرتا على الامم الشرقية وياوليتنا

اذا فرطنا في تعليم ابنائنا بما لا يوافق الفطر الطبيعية والحكم الكونية

﴿ موافقة التنزيل للفطر الانسانية ﴾

جزاء أمة لم تفهم ما انزل عليها ولم توقظها الحوادث ان تتأخر في الوجود

لم يكتف مبدع الكون في التشويق للعلوم بمحاسن الطبيعة ولا بالفطر المنغرسة بل أنزل في الكتب المقدسة ما يوافق ذلك ويلائمه فيذكر محاسن الطبيعة في سياق الاستدلال عليه رمزاً الى الترقي في معارج العلوم وسلم الكمال وقصة ابراهيم الخليل في القرآن مشهورة مستفيضة من انه رأى كوكباً فقال لقومه هذا ربي فلما أفل عرف عدم صلاحيته للالوهية فلما ظهر القمر قال مقالته في النجم فلما أفل أنزله عن مرتبة الربوبية وهكذا فعل بالشمس حتى اذا أفلت رجع الى مبدع الكون وقال اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفاً وليس المقام في تفسير الآية وانما نقول انها لم تذكر لمجرد حكاية بسيطة وانما أريد بها ان يكون ذلك نموذجاً للترقي ولعمري انما كان نظره عقلياً . تشهد الفطر انها

اذا شاهدت جمال النجوم لمحت من اضوائها رمزاً غريباً الى أمرين الشوق لمعرفة حقائقها وحسابها وسيرها المنتظم والثاني مبدعها ومنظمها في هذا البعد الشاسع وكلما اوغل في الاول قرب من الثاني وتزداد المعرفة بازدياد العلوم فترتقي أحوال الناظرين في الجسم والروح والدنيا والآخرة ولا يزال المتعلم ينتقل من طور الى طور حتى ترقي أمته في مدنيتها وروحه في عروجها الى ان يصل الى مستوى يسمع فيه نداء يخر له عباد الشهوات سجداً صاغرين

ربما يخطر ببال كثير منا ان الغربيين ترقوا بالآلات الحربية والصناعات ولعمري لم تكن الصناعات الا نتائج وثمرات للعلوم الطبيعية والرياضية فما هزم الجيوش وأباد الجموع ذلك العسكري البسيط وانما هي النظريات والمسائل والعلوم التي أسست على أساس متين حتى اشتغل الطالبون بها حباً فيها لاسعياً وراء المال حتى اذا وصل اليه وقف وقفة القانع المكتفي

﴿ سير التعليم قسمان ﴾

لكل أمة من الامم ضربان من ضروب التعليم وطريقان من طرقه لسائقين أحدهما بالاضطرار والآخر بالشوق

والاختيار وما مثل الامة الا كانسان واحد يشتهي الطعام بقائدين الم الجوع وشوق الى لذة المأكول وبدونهما تكون الشهوة ناقصة لا تؤدي وظيفتها

فهكذا الامة لا بدّ لها في طريق العلم من سائق وهي الحكومات وقائد وهو الرغبة الى العلوم فاما الحكومات فهي مضطرة بطبعها الى ايجاد فريق من الناس يقومون بحاجة البلاد من قضاء وادارة وضبط ورجال شرطة ـ كل هؤلاء لا بد منهم والالذاقت الامة الم الاضطرابات الداخلية وتعطيل المصالح والدمار والحكومات مهما كانت لا مصلحة لها سوى ما ذكرنا فان زادت فهو الفضل العظيم

﴿ نصيحة للمسلمين عموماً والمصريين خصوصاً ﴾

ارى ان الترغيب للعلوم في ديار الاسلام يكاد يكون مفقودا البتة مع انا قدمنا ان محاسن العلوم منزلة منزلة لذات المطعومات التي افرغها مبدع هذا النظام في الاثمار والاشجار ونحوها وابرزها للناس تشويقاً الى تعاطيها وتحبيباً الى الميل اليها لتدوم الحياة ويتم الامر ولو انعدم هذا لضعفت الاجسام وانبتر نصف الانسانية فهكذا الامة ان لم تعرف مزية العلوم ساء مصيرها وعاشت

عيشة الضرورة وهي الحياة الاضطرارية الجبرية القهرية التي لا لذة فيها ولا سرور وانما هي حياة تشبه في شكلها حياة الحيوانات المنزلية وذلك انما جاء من ترك ركن عظيم من الاركان المقومة لتلقي العلوم وهو الوجدان واللذة من الذي ينكران في العلوم ما يلذ النفس ويشوقها الى تعاطيها لذة تفوق ما في الفاكهة والحلوي

وقد اجمع الحكماء ان الشائق افضل من السائق فبناء على هذه المقدمات المحسوسات اقول ان الحكومات في الامم تقوم عادة بما تقدر عليه من حاجات الامم وهو القسم الاضطراري كما اشرنا اليه

اما الآخر فتلقي تبعته على عواتق حكماء الامة ونبهائها واغنيائها اولئك هم المطالبون يوم لا ينفع مال ولا بنون في الآخرة ويوم تقوم الأمم شهيدة عليهم انهم قصروا في تعليم ابنائهم عجبا كيف ينبغ في الامة رجال لم يعلموا ان للعلوم لذة ولم يسمعوا من احد ما يشوقهم الى ذلك

اسفي على امتي التي شبت الامم حولها وهي في الهرم المشين فيا اسفا عليها يخرج شبانها لا يجدون لهم من يشوقهم

الى العلوم ولا من يعرفهم ان آباءهم كانوا ملوكا على الاسرة وحكماء وعلماء وصلحاء ولا عيب على الحكومات ولا سبيل عليها

الا انما السبيل كل السبيل على اكابر هذه الامة وسراتها واعيانها وعلمائها وشبانها المهذبين الذين لهم نفوس صادقة صافية وهل يليق ان نسمع التقريع كل يوم من اجانب ووطنيين ونام عن ابنائنا وغن تعليمهم

يستحيل على الانسان ان يطلب شيئاً الا اذا الم بمعرفته وما دام المحرك الاول لاكتساب العلوم هو المال لاشيء سواه فمتى وصل المتحرك اليه وقف وما دام العلم لقصد الشهادات حرمت الامة من رجال يقومون بامرها ويجددون مجدها واهم ما يجب الآن القيام به تأليف كتب على طبقات شتى تحث على الاقبال على طلب العلم ولا بد ان تكون من اناس مجبولين طبعاً على حب ما ولعوا به والفوا فيه وهؤلاء طبعاً تنتقل الكهرباء من افواههم وكتبهم الى من يسمع كلامهم ويفهم ما يقرأ فتخرج اذ ذاك ناشئة على مشربهم وطريقهم فتدعو الى ما دعا اليه الاولون ويكونون ارقى منهم وهكذا تتدرج الامة في مدارج الكمال

﴿ الرسالة الرابعة ﴾

﴿ العلم وضياء الشمس ﴾

هل جلست ليلا في خلوة والليل ساكن والسماء هادئة والارجاء حالكة وقد شمل العالم السكون . ولا أنيس لك اذ ذاك سوى عقلك ومذكرتك وخيالك الانيق . وهل نظرت اذ ذاك في جمال تلك القبة الزرقاء وقد رصعت جلابيبها بالدراري البيضاء المنتشرة في اكنافها الدائرة في مداراتها الصاعدة الهابطة الذاهبة الآتية . وهل تأملت جمالها وقد كحل أعين سماكها ودبها وبنات نعشها فأبصرت الخنس الجواري الكنس تهيم في الليل البهيم . نعم ابصرت ذلك ولعله لم يخطر بخيالك انها ساعات منتظمات تدور بنظام بديع حتى اذا آذن الليل بالهجوع ودنت الشمس من الطلوع اشرق نور في طبقات الهواء وازداد وتكامل حتى اذا طلعت البست الجو حللا صفراء واخفت معالم تلك الراقصات في الدياجي وأخذت ترسم على السحاب الوانا مختلفة وهكذا قوس قزح ازرق وابيض واخضر واحمر واصفر وبنفسجيا وبرتقاليا فترى السحاب مكللا بانوار ساطعات في الاوقات المختلفات بحرارة الشمس واضوائها وتظهر الانوار

وتحل في محازاة الشمس فترسم قوساً مقابلا لها كانها تشير بطرف خفي الى ان ما لطف من الاشياء وما جمل يعبر عن الحقائق أحسن تعبير واجمل بيان . وهل صدقت الجامدات كما صدق السحاب وقوسه . لا بل تشرق الشمس على الارض فلا تقبل المخلوقات اليابسة الا لوناً بعد لون فما مثل الماء الا كمثل الاذكياء من الامم الناظرين بعقولهم فهؤلاء تتجلى لهم المعارف على اختلاف انواعها فيبينونها للناس اما الآخرون وهم المقلدون فانما يتجلى لهم منها ما يناسب افكارهم ومشاربهم . الم تر الى ضوء الغزالة اذا انبسط على اديم الارض كيف يقبل منه كل شي ما يناسبه فيخضر نبات وتبيض وجوه وتسود وجوه ويصفر زهر ويحمر آخر وترى كل شيء تختلف الوانه ويعطي كل ما يستحقه حتى الاحجار في الجبال « ألم تر ان الله انزل من السماء ماء فاخرجنا به ثمرات مختلفاً الوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والانعام مختلف الوانه كذلك » والناظرون في هذا المفكرون فيه هم الذين يعرفون قيمة هذه الحياة « انما يخشى الله من عباده العلماء » ... وبالجملة فسنة طبيعة الاشياء اللطيفة التجلي والوضوح

والظهور كما رأيت في قوس قزح وسنة الجامد الجمود فلا تظهر الاضواء كلها بل ترى لونا بعد آخر فاهذه الالوان الا مظاهر للنور كما اجمع عليه علماء الطبيعة قديما وحديثاً . ولعمرك ان النفوس الانسانية اشرف وابهج فهي التي تتجلى فيها صور العوالم اذا اخذت في التعلم والتعليم والنظر في هذه العوالم بل اذا رسمت صور النجوم في طبقات الماء في حالك الظلام افلا ترسم في صفاء نفسك جمال طبائع هذه الكائنات الجميلة .. وهل لك ان تنظر نظرا آخر ادق واجمل وابهى وابهر . مثل كرة الشمس امامك وضعها في خيالك بين عينيك وتصور الارض وهي دائرة حولها تر رسما آخر وعملاً غريباً عجيباً . ترى الشمس امسكت بآلات من جرم الاثير المالئ للفضاء بيديها واخذت ترسم على وجه الارض صور النور بالمقابلة والاظلام بالادبار فترى النور يقطع الظلام من مكان وهو يقطعه من مكان آخر على شكل كروي « خلق السموات والارض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لاجل مسمى » فهذا التكوير انما جاء من نسخ الليل للنهار ونسخ النهار لليل لا يفترقان عن عملهما ولا يناماان بل هما

دائبان مستمران لا يهدآن « يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً »
وما الاظلام والاضاءة على اديم الارض الا كعقربي الساعة
بهما نعرف النهار والليل والصباح والمساء. بل نحن بأدنى التفاتة
نعرف ان كل ظل على سطح الكرة عبارة عن ساعة وان شئت
فكل نور جاء من الكواكب او ظل فانما هو بمقدار يعتبر
ساعة منتظمة اتقن من الساعات الصناعية وهل يستوي الطبيعي
والصناعي. وان اردت وضوح ذلك فاذهب الى القرويين لدى
النواعير وقد وضعوا شخصاً كعود في الارض وقسموه الى اقسام
ولاحظوا ظله وراقبوا حركاته في الصباح والمساء ورتبوا على
ذلك تعاقب دوابهم على العمل واعتقدوا انها قسمة عادلة بناء
على ما ثبت في فطرهم المستمدة من مبدع الكون بالاصالة انه
لا تغيير لنظام الله ولا تبديل قد كتبت هذه على صحائف
ضمائرهم ورسخت في اذهانهم وان لم ينطقوا بها كما رسخت معرفة
الله في نفوسهم وان لم يقدروا على التعبير عنها وبالجملة فهؤلاء
القوم اعتمدوا على هذا الظل التابع لحركة الشمس لانتظامه
بسيرها ولو اعتبرت يا سيدي كل شيء من النبات والشجر
والحجر والمدر والجبل وكل ماله ظل من انسان وحيوان لعلمت

انها كهذا الشبح البارز في الارض ساعة منتظمة لا تغيير ولا
تبديل فبهذا وضح القول وظهر ثم نرجع فنقول اذا لاح لك
ما رسمناه وعرفت ما تلوناه وشاهدت الظلمات والنور ترسم
الانوار والاشكال والجمال في هذه العوالم وتقدر المواقيت بقدر
معلوم ثم لم تتفطن يوماً لها ولم يحم فكرك حولها حتى اذا برقت
بارقة من سماء العقل الى جو خيالك طردتها مذعورة وايأستها
من فطنتك وابعدتها من رحمتك وقلت ذلك لا خبر فيه ولا
ملبس.... مع ان الامم حولك وأيم الله لم ترتق الا بقوم جدوا
في جميع العلوم بشائق لذاتها وسائق الرهبة من الجهل وسوء
التأخر ...فهل أنت معتبر نفسك بعد الآن مثل رجال الامم
الحية فتمكنها من نظرة او نظرات لئلا تتقلب الاعمال حسرات
ولئن شاقك هذا القول رأيت نفسك عاشقة للطبيعيات لان
قسم الضوء منها وملت الى قوانينها وهكذا أحببت علوم الحساب
والارتماطيق والجبر والفلك . فاذا لم يبلغ هذا المقال اعماق
قلوب فريق من الاذكياء في الامة ولم ينل حظاً من نفوس
ابنائها فبشرها بالحياة الحيوانية في الدنيا وسيطرة غيرها وبوارها
وبقائها خاضعة الى أبد الآبدين ودهر الداهرين او تندغم في

جسم غيرها كما اندغمت لام التعريف في هذه العبارة (الا فليبلغ الشاهد منكم الغائب)وليعلم الذين يعلمون الذين لا يعلمون والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته وصلى الله على سيدنا محمد

﴿ الرسالة الخامسة ﴾

﴿ المحسوسات سجن الجهلاء وجنة العلماء والارض لهم عروس تتجلى في الفضاء ﴾

تأمل فيما ترى وانظر في هذا العالم حولك كيف تراه مشرقاً كله من سموات وارضين بالانوار الساطعة الشاملة لاجزائه كلها مصداقاً لقوله تعالى الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة (الآية) وأنت ان أطلعت على ما سنوضح في هذه المقالة تعلم كيف اضاءت الارض على غيرها وأشرقت كيفية الكواكب المستمدة من غيرها معجزة للقرآن ومصداقاً له الى آخر الزمان باجماع حكماء المسلمين والاوروبيين - نحن الآن على سطح الارض في طبقة من الهواء ممزوجة بالمواد الفحمية (الكربون) وبخار الماء فاذا ترقينا قليلاً قلّ المخالط وصفا الهواء وضعفت الحرارة

ولا يزال الصفاء في ازدياد والبرد في اشتداد كلما اوغلنا في الصعود حتى نرى ابرد الطبقات وهناك نشاهد عالماً كبيراً من سحاب وبرد وثلج ورعد وبرق هذا في صعود وهذا في نزول وهذا في سكون فاذا أخذنا نجول وراء ذلك فى ساحة الافلاك رأينا شموساً طالعة وقماراً بازغة وانجماً لامعة فاذا اتخذنا احداهن مركبا وجلنا في تلك القبة الزرقاء رأينا ما يدهش العقل منه . رأينا شموسا تدور في مداراتها واقماراً ونجوما تغيب وتطلع وتجيء وتذهب وتختفي وتظهر بحساب مقدر « الشمس والقمر بحسبان » لها مدارات بيضاوية الشكل تسير فيها بنظام معلوم وقدر مقدور « وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال »ثم نتأملها فنجد منها ما بعده شاسع عظيم البعد كالشمس التي لو أطلقت منها قلة مدفع لوصلت الينا في اثنتي عشرة سنة بالسرعة الاولى وهذه المسافة يقطعها الضوء في ثمانية دقائق وثمان عشرة ثانية وهي اكبر من الارض بنحو مليون ونصف ولعمرك ما أصغرها في أعيننا الا ذلك البعد العظيم الذي قطعه المدفع في تلك السنين والضوء في مدة الدقائق والثواني واذا كانت الشمس بهذه المثابة من

العظم بالنسبة لارضنا فما بالك بنجوم صغيرة جداً في نظر العين تبعد عنا بابعاد شاسعة جداً حتى ان النجمة العظيمة المسماة بوتد النجم عند العامة تبعد عنا بمسافة يقطعها الضوء في خمسين سنة فكيف تكون عظمة تلك النجمة واذا كانت المسافة بيننا وبين الشمس ثمان دقائق تقريباً وقد هالنا أمرها وذكرها الله في القرآن في مواضع كثيرة فما بالك بتلك النجمة القطبية وأي نسبة بين ثماني دقائق وخمسين سنة من ذا الذي ينظر عظمة ذلك النجم ولعمرك ما الشمس بالنسبة له الا كذرة في الهباء أو رملة في الفضاء او حبة في الخلاء او قطرة في بحر او خردلة في جبل وهذه النجمة التي هالنا أمرها ليست شيئاً يذكر بالنسبة لنجوم أخرى شوهد بعضها وعرف ان ضوءها يصل الينا في آلاف من السنين مما يقدرون لعمري لا يعرف تلك العظمة الا مدبر الكون وصانعه ومن لنا بالاحاطة بالعوالم وراء الافلاك وقد اختفت عنا وما معارفنا وعلومنا الا كطيف خيال ومن لنا بان نقف على ماهناك من نجوم في المجرة لم يقدر العلماء على تحليلها وهذه عظمة لا منتهى لها ولا غاية. هذا كله يلحه الحكماء اثناء سياحتهم في ذلك الملك العظيم وكأنما يشاهدون

عظمة الله وجلاله ويلحظون بعقولهم ويوقنون بالملائكة الحافين حول العرش يسبحون بحمد ربهم فاذا تخيلت بعقلك نفسك رايتك مغموراً في الانوار محوطا بالاضواء من كل جانب وتقرأ قوله تعالى « الله نور السموات والارض » ثم تتذكر الارض التي خلقت منها وحقارتها وصغرها فى جانب ما أنت مغمور فيه من الجمال الفائق والعظمة الهائلة فتشوقك نفسك الى ان ترجع اليها وتنظرها نظرة احاطة وحكمة واذا تمتطي كوكباً من كواكب السماء حتى تصل الى الشمس وتركب متنها ونستعيذ بالله من لهبها وتقرأ «قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم» وتدهن بالادهان الواقية من النيران ثم تنظر الارض وهي تزف حولها دائرة حول نفسها بالليل والنهار قاطعة دائرة عظيمة كل عام بانتظام حولها لا يعتورها خلل ولا ملل وهي في الحقيقة قطع ناقص كالذي يرسمه البستانيون في بساتينهم ويزرعون فيه ازهارهم الهمهم اياه مبدع الكون مشاكلة لنظام أرضه الكلية وسيرها العمومي ثم تأملها من وجه آخر فتجدها تكسب القمر ضوءاً منعكساً عن سطحها آتياً من الشمس فتكسو وجه القمر ضياء يربو على ما يعطيه اياها ثلاث عشرة مرة ونصفاً فلو وقف حي

على القمر لرآى ضوء الارض انعكس عن سطحها اضعاف نوره
الآتي اليها أربع عشرة مرة تقريباً وذلك لان سطح الارض
عبارة عن كرة محوطه بالماء الى نحو سبعة اعشارها وثلاثة الاعشار
الباقية مملوءة بالرمال في الصحاري المحرقة والموامى الموبقة والجبال
الشاهقة تلك جميعها امتلأت صخوراً ورمالا لامعة براقة فكأن
الماء وما يلامسه من الرمال صحيفة واحدة من الزجاج كونت
كرة محيطة بالارض انعكس عنها الضوء الى الفضاء حتى يصل
الى القمر وغيره وما اشبه الماء بالزجاج في الصفاء اما الرمال
فهى مادة الزجاج وتلك الاراضي السوداء لاتمنع انعكاس الضوء
فانها قليلة ومع قلتها فقد اكتسبت من جمال الطبيعة والازهار
حسن الرونق ومن العجيب ان الانسان اضطر بواجب الحكمة
ودواعي الصحة الى ان يستجلب تلك الاحجار والرمال من مكانها
وينقلها الى الارض السوداء ويبنى مساكنه ويشيدها في وسط
تلك المزارع والارض السوداء الجرداء فيبيض وجهها فتلمع
بالبهاء والنور ويا ليت شعري كيف جعل الرمل على وجه البسيطة
بالوان جميلة حتى ساعد على عكس الاشعة الى القمر وكيف ثم
كيف افهم قوم ان يضعوه بين ايديهم ويخطوا عليه خطوطاً

يستفتون منه امر الغيب كانه ارتكز في طباع البشر عامة ان
هذا الذي نطؤه باقدامنا وندوسه بنعالنا فيه امر الغيب واسرار
العلوم والحكمة وكانه كمن في الفطر البشرية والعقول الانسانية
ان لله سرا في هذه حتى ظهر لاقوام فصنعوا منه ومن البوتسا
والرصاص بللورا أراهم خبايا النبات والحيوان وعجائب الارض
والسماء وجمال النجوم وبهجتها مع ما كان منه اولا من عكس
الاشعة الى جهة السماء فاذا تخيلت الارض بهذه المثابة من
البهجة والجمال والنور وهي تدور بسرعة هائلة وحركة سريعة
حول الشمس لم تر الا عروساً تتجلى بزينتها وهي على مدى الايام
ام ولود على دوام الثواني والدقائق والساعات والايام والليالي
والشهور والسنين والدهور والاعصار فهي ابدا تزف حاملة والدة
مربية مكللة بالحلي والحلل والنور وانظر كيف ترى ان ما عليها
من المواد الرملية في نظر العلماء يربو على الذهب والفضة واليواقيت
والجواهر والاحجار الثمينة فلله در العلم يجلى الاشياء بحقائقها
ويعكس الاوهام العامية فيرى العالم ما لا يراه الجاهل. أهذا خير
ام ذلك الذي حبس بصيرته في جزء من الارض قليل فلم يتمثل
امامه الا قطعة منها يزرعها ويستغلها ومنزل يسكنه ودابة يركبها

اواصبح مولعاً بالذهب والفضة لذاتهما لا للمفاخر والكمال ولرفع شأن الامة. ها أنت شاهدت نظر الحكماء لهذه الدنيا في خلواتهم وانسهم بنفوسهم فمن اولئك المحرومون الذين غادروا الكمال واتبعوا الشهوات فحبسوا في سجن من الجهل وانحشرت نفوسهم في دجنة من ليل الامور الجزئية وضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم انفسهم واخذوا يتضاربون على قطعة صغيرة من الارض ووقفت عقولهم عن ذلك فلم يروا النور الا من سم الخياط وهيهات ان يلج الجمل في سم الخياط (وكذلك نجزي المجرمين لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين) كل أمة ضاقت نفوس أهلها ولم يزج منهم في النور احد ولم يرح رائحة جنة العلوم فبشرها بالتقهقر امام صولة العلم وقوة الصنائع واذا لم يكن في الامة رجال يصولون بالعلم والحكمة وقد خرجوا من جهنم الجهل وغباوة النار فهي الخالدة في عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وابقى فانظر كيف رأيت المحسوسات سجناً لقوم جنة الآخرين والارض في نظر هؤلاء عروساً تتجلى في الفضاء بالحلي والحلل وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

رسالة لترقية التربية والتعليم

في القطر المصري

كتبها لصديق له عظيم اذ طلبها فاردنا اثباتها هنا

تعميما للفائدة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وصلى الله على خير أنبيائه . أما بعد فيا أيها الاخ الفاضل العظيم استبشرت بطلعتك باسمات الامال وضاءت بانوارك غرر الاقبال وكتبت السعادة بيدك سطورا على صفحات الاعمال فيثمر روض العلوم الزاهر ويبتهج دوحها الناضل ويزداد سعدها الحاضر

وبعد فان أشرف الاعمال أكثرها نفعاً . واتقنها صنعاً . وادقها وضعاً وخير العاملين اصدقهم عزيمة وأوسعهم همة واثبتهم حزماً . ولا عز لامرئ الا بسعد أمته وسعادتها في خزائن الحكمة ومقاليد الخزائن بيد العلماء وافضل العلماء من جاد بعوارف معارفه وعم الناس بوابل علمه وطله واشرق بشمس حكمته ونجمه فشرع لها المناهج واضاء لها الحالك ووقف نفسه على تذليل العقبات وصارت الامة نصب عينيه وشغل اصفريه ونتيجة مقدمتيه ونور ناظريه ويومها اسعد يوميه وانما المرء

حديث بعده وما فضل العالم على العابد الا باشراق توره وتعميم نفعه وخير النصائح ما حض على علم بنشر وحكمة تذكر وفضيلة تذاع وامر يطاع واني لا ازال اذكرحديثكم ونحن له مصغون وانت لهج بذكر الامة ورقيها وتعليم الفتيان والفتيات عازما ان تلأم الصدع وترقو الخرق وترقع الفتق وتسل سيوف العلم لتهزم كتائب الجهل وتسخر شمس الهدى لتنسخ ظلام الضلال فوالله لقد صدقت الظن وخامرت القطن وسلكت القول في القلوب فصادف صيب المقال افئدة تهوى اليه وعبرت عما تكنه النفوس وتهواه العقول وكأنما ذلك كان على ميعاد فطالما هممت بمقالة اكتبها في التعليم العام لاعرض رأيي عليك فلا يساعدني الحال وضيق الوقت وشغل البال وكم كنت اقدم رجلاً وأؤخر اخرى لا ادري ايهما احرى فان ذكرت شغلي بالتسويد والتبييض والكتابة والترميج ضربت الذكر عن ذلك العمل صفحاً ولويت عنه كشحاً وان ذكرت ان الميسور لا يسقط بالمعسور وان كاتم العلم ملعون والنحل يجمع من الشهد ما لا يستطيعه اكبر الحيوان وهو الذي يشتاره الانسان رغبت في العمل حتى اذا كان ما طلبت مني الفيت ان الفرصه سانحه

والاعذار نازحه والتجاره رابحه وبوارق الآمال وامضه ومشارق العلوم ساطعه

حينئذ اخذت اسطر ما خامر قلبي واذكر ما املاه وجداني واثبت ما اوجبه عليّ ديني حتى أبرأ من الكتمان فان كاتم العلم لجبان وملعون في كل مكان لا سيما في هذا الزمان الذى اطبق ظلامه ونباكهامه وارجحن جهامه فلذلك سطرت هذه العجاله وان شغلت الفكره وقلت الخبره اذ لم اتبين لامر الا من وراء حجاب ولم انظر الا من الطاق وثقب الباب ولكن اثبت القواعد وابنت الشواهد وبنيت المقال على خمس مقاصد وابتدأت الكلام على تعليم البنت لانها المدرسة الاولى ثم اتبعتها بالكتاب وازدفتها بتعليم اللغة العربية في عموم المدارس ثم قفيت بذكر العلوم في التعليم الاوسط وختمت بتعليم الدين في المدارس الوسطى والعالية فاما استيفاء النظام العام في التعليم فذلك لن يكون الا بعناية وجد وتشمير وتفرغ واعمال فكرة واستحضار ما سنته الامم في مناهجها ومقارنة ما عملوا بما عملنا واتباع الاتم الاجمل والاحسن الافضل فما لي بذلك يدان اذ لم اجعل بصدده ولم اندب له

المقصد الاول - تعليم البنات . ينبغي ان يكون ثلاث درجات درجة الفقراء ودرجة المتوسطين ودرجة الاغنياء والمثرين . فاما اولاها فما احراهن ان يعرفن ما تمس له حاجة امثالهن من القراءة والكتابة ومبادئ الحساب واعمال المنزل والنظافة والصلاة والصيام والاخلاق ومعاشرة الزوج وحب الوالدين وبعض أمور صحية وتربية الولد وما شاكل ذلك ويجب الحرص على الصلوات والتوجه لله في الخلوات وليكن قيمة المدرسة قدوة لهن وقائدة لعملهن ...

تذكرة. لقد قرأت منذ سنين مقالاً دبجه سائح انجليزى منقولاً عن احدى جرائدهم قال : مما يزرى بالمصريين ويؤخر تقدمهم ان قراءة الدين عندهم تضع من شأنه عند الصبيان وتذهب بهجته عند الاطفال وتحط من مقامه امام الفتيان ذلك ان الشيخ يبنى بقوله . والناظر يهدم البنيان بأفعالهما فى المدارس الوطنية والصبي يقيس قول المرؤس وفعل الرئيس فيزدرى بما سمع ويتبع ما رأى فالارفع اولى بالتقليد والرئيس احق بالتقديس

المدرسة الوسطى للبنات - وهى التي يدخلها اواسط الناس

فعليهن ان يتسمن في العلم ويلممن ببعض العلوم كما يدرس الشبان الا اللغة الاجنبية مؤقتاً وليقرأن فصائل النبات والحيوان وصور النجوم السماوية وبعض الهيئة والاقتصاد وليكن اكثر اطلاعاً واوسع باعاً في سائر ما تحتاجه المنازل من دقيق الامور وجليلها ولتكن اوسع دائره بعلم الصحة من سابقتها ولتعلم من الاخلاق والآداب على مقدار ما سيذكر للشبان في المدرسة الوسطى واذا عرفت الموسيقى فليكن لتلطيف اليبوسة وتحسين الاخلاق وعروج النفس في معارج الكمال

المدرسة العليا للفتيات - وهذه تكون اوسع اطلاعاً واطول باعاً واعلى قدماً وارفع طوراً واقوى ركناً واغزر علماً وأكثر مادة فتقرأ نظام الامة واحوالها ومجلس شوراها ومركزها بين الامم وتلم بالقانون لتأمن مكر المحامين المحتالين وبهتان الكاذبين لئلا يغتالوا مالها ويلعبوا بنردها ويطمس سهامهم نجمها ويغلب فزرانهم شاهها

اما اللغة الاجنبية فأرى تحريمها على المدرسة الاولى والثانية . فاما الثالثة فربما ساغ للفتيات قراءتها اذا كن من اكبر الاسرات

ومن علم بنات الفقراء تعليم بنات الاغنياء اودى بحياتهن ذلك انهن يجنحن الى سعادة لا يجدنها ويحلمن بحياة لا يرينها والاغنياء عنهن راغبون فيعشن في حياة معلقة فلا هن يرضين بمن ساواهن في المتربة ولا هن ينلن ما يبغين من المنقبة وذلك هو الداء العياء الشائع في المجالس والاندية فاكثر اللاتي فسدن من المتعلمات على ما أرى أولئك المسكينات ولتحرم الروايات الضارة عليهن تحريماً ان في الروايات ابطالاً صورهم الخيال وأبرزهم الوهم وبرأهم الهوى فمتى قرأت الفتاة وصف بطل نظرت يميناً وشمالاً فيمن حولها لعلها تؤنس شاباً يشاكله أو جميلاً يشابهه وعيشاً خضراً كذلك العيش الخيالي البهي فترجع بخفي حنين فتعيش كاسفة البال في أسوأ حال وما أتعس حالها وما أسعد حال المعدمة بالنسبة لها الا ساء مثلاً علم يرد عن هدى ويوقع في ردى ويزرى بالاسرات ويوقع في البليات

المقصد الثاني - الكتاب . ما كان لي أن أخوض في عباب هذا البحر الخضم فغيري أولى به واعلم بمداخله ومخارجه ولكن لا ادع ما يخالج قلبي فلا اذكره فان كان مهملاً فذكرى وان كان مهتماً به فعناية واهتمام ذلك ان يراعي في

تعليم الاخلاق ما عمت به البلوى واخص مسئلة صارت من احدى الكبر وهى اجل معتبر ذلك ان المغاربة والدجالين يلجون من كل باب ويطرقون ابواب الكسب بغير حساب فكم اسرة بددوا ومال جمعوا وعقيدة جهل في القلوب زرعوا بحيث لم يدع فتح الكنوز قرية الا اعمى اهلها ولا قلب القصدير والنحاس المدعى ذهباً قلباً الا طمس عليه فالقلوب صارت غلفاً والعيون عن الحق اصبحت عمياً ومن عجب ان ذلك شائع من القدم وقرره بن خلدون من نحو خمسة قرون وسجله في كتابه ضحك فقراء المغاربة على اغنياء المصريين فتارة يفتح كنزا واخرى يقلب المعدن ذهباً وآونة يفعل ما يذهل العقول واني لاعرف وقائع كثيرة في البلاد فليحك لهم من هذا النوع ازواج حتى يعلموا ما احاط بهم من الغواشي الغاشية والمخازى الفاضحة وهكذا زيادة العناية بالبهائم وتحريم ضربها ورسم الطيور النافعة في الزراعة وابقائها وتحريم ايذائها وذكر من أذى دابة بالتحقير ومن قتل طيراً من النافعات بالتقريع والتنفير والحض على حفظ اعشاشها في الشجر وليحض على تكثير غراس الشجر ليكون مأوى لها ومنتدى لجماعاتها حتى

يصان الزرع وبدر الضرع لاسيما مثل البوم فانها تأكل الجرذان كالهرة ومثل ابي قردان والخطاف والغراب ونوع من العصافير فتلك آكلات للدود مبيدات للحشرات كما رأيته في مؤلفات الانجليز لصبيانهم وبناتهم في اول حياتهم ذلك مثلهم وكما فعل ذلك احدى رجال بسنديله اذ قرأ ما قررته في احدى كتبي في هذا المقام فافهم الفلاحين وابناءهم فتحاموا اذاها وراعوها حق رعايتها ثم اخبرني بنفسه ووقى الله حقوله من اضرار الدود بفضله

المقصد الثالث ـ اللغة العربية : لست اريد ان افيض القول في سائر اطراف هذا الموضوع فكم افاض فيه الغوقه القماقم الصناديد الجحاجح ولكني اريد ان افيض فى أمر اغفله الاكثرون وقد قتلته بحثاً وتنقيباً وخبرته علماً وتدريباً وقراءة وتجريباً ذلك متن اللغة العربية

ان مدارسنا ايام المرحوم محمد علي باشا رأس الاسره الخديويه نسجت على منوال الازهر في تعليمها اللغة العربية ونهجت مناهجه وسلكت سبله حذو القذه بالقذه

لاجرم ان الازهر كان جل اهتمامه بالدين واذا ورد

طالب العلم من قريته وانتظم في سلكهم سبق الى عقله بادى الرأي ان كل ماتعلمه عن الوالدين اشد ظلاماً من الليل وابعد عن الصواب بعد الهدى عن الضلال فيفر منها فرار الصحيح من الاجرب ويتعالى عن التكلم بها والحوار بالفاظها ويقصر همه على ما لديه من الكتب حتى يصير محفوظه في خبر كان وقد نسجت عليه عنا كب النسيان فان يخطر بباله او يهجس بقلبه ان لفظ الغبيط مثلا من العربيه حتى اذا قرأها في معلقة امرئ القيس (تقول وقد مال الغبيط بنامعا الخ) عرف انها عربية غير مبتذلة ولكن يخيل له انها نادرة والنادر لا حكم له

هكذا درج ابناء المدارس اذ يأتون افواجاً من كل حدب ينسلون ويفهمون كما فهم الذين من قبلهم تشابهت قلوبهم وعمت الفكرة الكاذبة الخاطئة القائلة ان الكلمات العامية لا صحيحة فتقال ولا فصيحة فتستعمل وكلا الرأيين خطأ فاضح وجهل واضح

ولأذكر هنا نموذجا من كلام العامه وارد في فصيح العربية وفي القرآن الشريف ولاقتصر على بعض الفاظ تتعلق بالنخلة واجزائها وبالملابس وبالحصاد

(١) ما يتعلق بالنخلة واجزائها

تقول العامة قلب النخلة أي رأسها اللين او الخوص الذى يلي اعلاها . ويقولون الجمار والجمارة شحم النخل والجريدة من النخلة بمنزلة القضيب من غيرها فاذا يبست فهي السعفه والجمع سعف وهكذا في كتب اللغة . ويقولون الكرنافه والجمع الكرانيف وهى اصول الجريدة الغلاظ وهي كرنافه أيضاً وليفت النخله وخوّص النخل وزاد القاموس أخوص . ويقولون سلة لشوك النخل وفي القاموس السلاء والسلاءة واشوكت النخلة كثر شوكها والقنو . والجمع قنوان والشمروخ هو الذى عليه البسر ويقولون لقحت النخلة باللقح وجماعة النخل يقال لها الحش والحش ويقرب منه الحائش والحوائش وعند العامة (الحوشة) وبكرت النخلة ادركت اول النخل الطلع نور النخل يقال طلع وطلع يقال للطلع اذا خرج ابيض . بغو مفرده بغوه وهكذا كل ثمر ويقولون رانخ وفي القاموس الرنخ والبلح الذى أرطب قبل ان يصير بسراً واحدته رنخه والرنخ أيضاً وابسر عظم وتكوّن فيه النوى ولا تعرفه العامة واذا تلون بالحمرة او الصفرة قيل شقح واشقح . رطب البسر رطوباً وارطب ورطب وهي

الرطبة ويقول العامة (جزيت النخلة) وهي جززتها ومن اوعية التمر القفعة وهي القفة والزبيل وهو الزنبيل والقمع ما التصق باسفل التمر وتقوله العامة قمع ويقال بلح عمرى والشيص واحدته شيصه وقد شاصت النخلة والشيص ما لا يشتد نواه والحشف ردىء التمر والزفروت ما يلتزق به القمعُ من البسرة فهذه نحو ثلاثين لفظه تنطق بها العامة وقليل منها محرف الا الكلمة الاخيرة فلا يعرفونها وكثير منها يعد من الغريب عند صناديد اللغة ولا تعرف الا بالبحث والتنقيب والعناية والعامة يعرفونها ويتكلمون بها

(٢) الملابس

يقولون مسلة وهي المخيطُ الضخم وغرزت الابرة وزاد القاموس غرزتها وشلت الثوب أشله شلا خطته خياطه حقيقيه. لفقت شقتين ألفقهما لفقا ولفقتهما خطت احداهما في الاخرى رفوت الثوب . أرفوه رفواً . لامته . رقعت الثوب ارقعه . البخنق . خرقه تقنع بها المرأة وتجعل طرفها تحت حنكها . والحبر جمع حبرة يقولون حردت الثوب وفي القاموس هردت الثوب مزقته . ويقولون خلق وخلقان . والهدوم جمع هدم

ويقولون في شراذم. شلاضم فيها تحريف ويقولون سمل ومعناه في اللغة الخلق ويقولون صار الثوب دلادل أى قطعاً وهي ذلاذل جمع ذلذل وذلذل والذلاذل أيضاً اسافل القميص ويقولون خرقت الثوب أخرقه وخرقته وتخرق وانخرق ومنه الخرقه

هذه نحو ١٥ لفظه تنطق بها العامة وبعضها محرف وكلها عربية وليس فيها دخيل البته

(٣) الحصاد

يقولون في نبات الفول بعد جزه من الارض قصلا والمفرد قصلة وفي كتب اللغه ان الزراعة ما دامت غضه فهى خامة فمتى جز الزرع يقال انه قصل قصلاً وافتصل كذلك وهو القصيل والقصل هو القطع فالقصيل بمعنى المقطوع وتقول العامة القمح قنبع اى لم يخرج سنابله وفى كتب اللغة قنبعت السنبلة اى لم تخرج من ساقها وتقول العامة القمح سبل وفي كتب الله سنبل القمح وأسبل وتقول العامة السبل جمع سبله وفي كتب اللغة السبل هو السنبل وتقول العامة السبل قمح يريدون صار فيه حب وفي كتب اللغة اقمح السنبل جرى القمح فيه وتقول

العامة ادرك القمح وفي القاموس ادرك السنبل اذا ابيض ويقول العامة (هاتوا لنا فريكة من الغيط) وفي القاموس فركت الحب افركه فركا . وتقول العامة نحصد القمح . وفي القاموس حصد يحصد من بابي ضرب ونصر والعامة اختصتها من باب نصر وتقول العامة ارسل البقر في الحصيد في القاموس الحصيدة اسافل الزرع التي تبقى ولا يتمكن المنجل من استئصالها . والحصيدة ايضاً المزرعة وتقول العامة اعطنا شمال برسيم واعط الحاصد شمال قمح . وفي القاموس كل قبضة قبض عليها الحاصد تدعى شمالاً ويقول الرجل لابنه : هات لنا جرزتين من القمح وفي القاموس الجرزه الحزمة من القمح ولكن العامة تنطق بالكسر ويقول العامة . عرمت العرمة وفي القاموس بمعنى يقارب هذا فيقال عرم يعرم تعريما ويقول العامة اذهبوا فالقطوا من الحصيدة وفي القاموس يقال لما سقط في الارض من السنبل لقطه ولقطه والجمع لقط ويقال لالتقاطه اللقاط وتقول العامة : وضعنا القمح في الجرن وفي القاموس الجرن جمع جرين ويقال في الجرن اجرنه فكأن العامة جعلت الجمع مفرداً ثم جمعوه في بلادنا فقالوا أجران ونسمع العامة في بلادنا

يقولون درسنا القمح ويقولون أيام الدراس وهكذا في القاموس ويقولون الدياس والدقه وكل هذا في القاموس قد دق الناس وداسوا واداسوا ودوسوا وهكذا تقول العامة النورج وهو معروف استعمله العرب وتقول العامة احنا ندرى القمح . وفي القاموس ذريت الطعام وذريته وذروته واداته المذرى وتقول العامة المدراية محرفه . ويقولون التبن. جمع تبنه وبائع التبن تبان

وتقول العامة تبنت البقرة غلفتها تبناً وهكذا في كتب اللغة وتقول العامة . في القمح المجتمع عرمه ولفظ العرمه في اللغة لكل ما اجتمع من الطعام والجمع العرم فهو في الاستعمال قريب

وتقول العامة : لما خلط من القمح والشعير بغيته وفي اللغة بقت الشئ خلطه بغيره فالصواب بالقاف ويقولون في هذا القمح غلت وصوابه غلث وهو بمعنى الخلط أيضاً فهذه نيف وثلاثون كلمة فان جمعت اليها ما سيقها كانت نحو سبعين كلمة نطق بها العامة في ثلاث مواد مما به يحيون وعليه يعيشون اليس هذا من العجب . واذا كانت هذه المواد الثلاث قد عرفوا لها نحو سبعين كلمة من فصيح اللغة ولم استوف نقل سائر الكلمات فيها فما بالك ببقية موادحياتهم ومعاني استعمالها

وموارد منطقهم ومحاور حوارهم هناك بحر تلاطمت أمواجه ربما بلغ ثمانية آلاف من الكلمات لقد حفظ العامة اللغة وحرفوا قليلاً كلفظ احنا ومانيش عارف هـذا قليل جداً لكن متن اللغة محفوظ حرام علينا ان نذر أبنائنا فلا نوقظهم الى لغة حفظوها وكلمات لقنوها حفظ العامة الفاظ المحسوسات ونبذها المتعلم وتعلق بألفاظ المعاني التي تغني بها الشعراء في الغزل والمدح والهجاء والرثاء ولعمرى لن تقوم أمة وهي في اللغة فقيرة . لا ترى كاتباً ولا متكلما الا تحاشى ما سمعه من أبويه خيفة أن يكون غير عربي فهل لهذا الداء دواء وهل له من شفاء. نعم الطريقة المثلى ان يسلك في التعليم طريقان في آن واحد

أولهما : ان تجمع هـذه الالفاظ الدالة على المحسوسات من النبات والحيوان والانسان والامتعة وغيرها وكذا المعاني التي يعرفها العامة في الوجهين البحرى والقبلي ويعلم كل ما جهله الآخر وتكون هذه هى اللغة المستعملة حتى لا يحرم الطالب مما رضعه من لبن أمه ودرج عليه في صغره وشب على سماعه وحرم من اتباعه ذلك كنز ثمين حرمه الشاب وأضاع فيه الشيخ سنى حياته

واذا قيل له صف جنة وابن أشجارها وزروعها وثمرها قال مالي بذلك يدان وأخذ يتسور محاريب المجاز ويتسنم غوارب الاستعارة ويبوء القارئ جاهلاً بالمراد وهاك مثلا ابنى عليه رائي فأقول

باب النبات والشجر

يقال بزرت البزر والجمع البزور فاذا صار في التراب فهو البزر فاذا بدت رؤسه فيقال شوك واشوك فاذا انشقت عنه الارض قيل انتش. واذا طلع قيل وتد فاذاهم ان تخضر رؤسه قيل احقل ثم ثنى وثلث وشعب اذا تشعب وبلغ أربعاً وفرش ونشر وقصب اذا صار ذا قصب فاذا ظهر سفاه قيل اسفى وخلع الزرع صار فيه الحب فاذا توالد فقد فرخ وافرخ وأشطأ

فهذه خمسة عشرة لفظه في زرع الارض يعرف العامة منها ما يحتاجونه وهي تسع

البزر شوك شعب وتشعب وفرش ونشر وقصب وخلع يقولون (الدره خلع) وفرخ اليس هذا أمراً يستحق العناية. اليس من المخجل ان نتناسى ما حفظناه صغاراً ونجد في البحث عنه كباراً

اما الطريق الثاني : فذلك ان يرسم كل نبات وحيوان ومتاع تقلها ارض مصر وتظلها سماؤها ويستعان بالمفردات التي قدمناها من محفوظات العامة على دراسة اجزائها وذكر بعض المنافع والخواص . ذلك والله قصد السبيل في تعليم اللغة في بلادنا وكل اصلاح فيها بعد تناسى هذا الاصلاح عديم الفائدة كما يكتب على الماء . ويخط في ثنايا الهواء . ذلك نفخ في غير خدم واستسمان ذى ورم وبنيان على غير أساس وقصر مشيد على غير قواعد

المقصد الرابع

التعليم الاوسط

اذا علم التلاميذ في المدارس الابتدائية بعض النباتات والحيوان والامتعة . فلتكن في هذه المدارس معارفهم أوسع وعلومهم أتم فليدرسوا علم النبات والحيوان والتشريح والنفس وصور نجوم السماء وبعض الهيئة الا ان اللغات عبارة عن المعاني فاذا عمه الطالب عن المعنى أخطأ اللفظ . لتكن كتب المطالعة جامعة نبذاً من النبات وجملاً من الحيوان وحكايات عن الانسان ولتكن شاملة جامعة لما تراه العيون وتلمسه

الايدى صباحاً ومساء فعار على الطالب أن يلهج لسانه بمذاهب الفلاسفة في اوروبا في سلسلة المواليد الثلاث وقد جهل الهرة التي يأنس بها والكلب الحارس . والحمام الداجن . والغراب الطائر

وليكن ذلك كله باللغة العربية . ان التلاميذ يعرفون كثيراً منها باللغة الافرنجية وطالما حادثتهم فاسمعهم يقولون: ده اسمه ايه بالعربي : ثم ينطق بالافرنجية وليس لنا عذر بعد ما تبين لنا ان أسماء هذه المخلوقات واجزاءها واضحة في المخصص فما على أولى الامر الا ان يصدعوا بالامر فتكون لجنة تضع هذه الالفاظ بازاء المعاني وتشرح بعض المنافع الطبية والمنافع المادية فاما العلوم الاخلاقية والدينية فهي منها براء والذى أراه ان يدرس علم الاخلاق ويضاف له آيات القرآن منتخبات تبلغ نحو ١٥٠٠ آية نصفها للعلوم ونصفها للاخلاق كررت الفضيلة فيها تكريراً وفصلت المكارم تفصيلاً من بر الوالدين وصلة الاقربين واليتامى والمساكين الخ وحثت على سائر العلوم من علويه وسفليه وانا بهذه الآيات كفيل

المقصد الخامس

التعليم الديني والاخلاق

اني هنا أجهر برأيي الخاص في مسألة التعليم الديني والقرآن والاخلاق فأقول

لقد يذعر الناس حين يسمعون ان القرآن يفسر وقد ثبت في العقول ووقر في النفوس وحكمت العادة واستقر الفكر وعم القول . ان القرآن صعب المنال لا يسبر غوره . ولا يدرك بحره وظنوا انه فوق طاقة البشر فهمه ذلك تأصل في الامة لاسباب شرحتها في كتاب التاج المرصع الذى ترجم الى اكثر لغات الشرق . ولكن اجتزئ منها الان بقول وجيز ذلك ان الناس لما رأوا علم الفقه كافياً في الاحكام الشرعية ورأوا الأئمة المجتهدين كفوهم مشاق البحث والتنقيب في الكتاب والسنة وقد درسوا ما اصطدم فيه المجتهدون من معضلة حلوها وغامضة جلوها خيل لهم ان ذلك لصعوبة فهم القرآن والعجب ان آيات الفقه لا تبلغ (١٥٠) آية الا بشق الانفس والقرآن نحو ستة آلاف آية وجميعها يدور محورها على الفضائل والمحاسن

والاخلاق والعمران والاداب . الم تر الى سورة سبأ كيف خلت من آيات الاحكام وسورة فاطر كذلك وليس فيها الا الحث على العلم والحكمة والاخلاق والفضيلة والاداب العامة ولذلك سمى القرآن مثاني ومتشابها لما يثني فيه من خلق ويشابه الوعد الوعد والوعيد الوعيد ولو كان القرآن كما هو الشائع مافهمه العربي ولقد قال تعالى : (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) وصدق الله فانا اليوم نقرأ المعلقات فتراها معقدات الالفاظ . معاظلات الجمل . بعيدات الفهم . صعبات الادراك . غامضات المقاصد . والقرآن أسهل لفظاً وأقرب متناولاً لولا ما خيم على العقول من وصفه . وما غلب بالعادة من نعته . ولقد جربت هذا العام بالمدرسة . ودرسته كما ادرس اداب اللغة مع التلاميذ . فالفيتهم بعد شهرين يحملونني في بعض الزمن ان اقرأ ربعاً اوربعين في الساعة لما يجدون من تشابه المعاني وان الآخر يفهم بالاول والمتأخر بالمتقدم واللاحق بالسابق فلست ادعى هذا بلا بينة ولا برهان

فما ارجع الناس عن فهمه . ولا اضلهم عن درسه الا انهم جعلوه مرانة على اللغة وقواعدها والبلاغة وبيانها وبديعها

ومعانيها فذلك والله خروج عن السنن ووقوع في العطب ونحن نرى العامة يفقهون القصص المحكى لهم في غير القرآن فينفعهم ما يسمعون

فاما طالب العلم فانه اذا ادارت محاور اعماله على دائرة اللغة وصرفها ونحو ذلك ضل سواء السبيل فالذي اراه ان يقرأ القرآن كله يفهم على الطريقة التي رسمتها والنهج الذي نهجت ولقد آتيت بنموذج من السور مذكورا المقصود منها . وقد ذكرت لها ملخص ايات الاخلاق والعلوم والاحكام الشرعية عقبها وانا الآن سائر في عملي على هذا النمط بحيث اذا تم القرآن قريبا ان شاء الله اصبح مفهوما عند سائر الطبقات . سهل التناول قريب المأخذ بحيث يقرأ الانسان السورة ويفهمها ويرى ملخص علومها واخلاقها واحكامها الشرعية وعمرانها واختلاف ائمتها وايها انسب بزماننا بلا ملل ولا نصب

واذا قلت ليقرأ القرآن في المدارس العليا بهذه الطريقة لم اكن متجاوزا الصراط السوى لاسباب

اولا - قد عد اللورد افبرى القرآن في الكتب المختاره

التي يجدر بعقلاء العالم قراءتها. افلا يكون الشاب المسلم المصري اولى من النصراني واللورد الغربي

ثانيا - ان هذا الكتاب كتاب لغة عربية فصيحة واذا قررته كلية بيروت في مدارسها مع كتب المطالعة افليس من العار الا يدرس مرة في مدارس القاهرة الوطنية

ثالثا - ان ما ملكناه هو خير لما لم نملكه وانتظرناه . واذا كان القرآن قد حفظه اناس افليس الاجدر بهم ان يكونوا احرص على دراسته بالمعنى قبل اشعار ابي العلاء وعنتره وامرئ القيس او ليس قوله تعالى : فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا احق بالعناية لفظا ومعنى من قول زهير : ومن لا يظلم الناس يظلم . او ليس قوله : ولا تقربوا الزنا . احق بالقراءة وادعى للفضيلة واجود للانشاء من قول امرئ القيس : ويوم عقرت للعذارى مطيتي . فيا عجبا من كورها المتحمل . يقولون اننا ندرس دين الاسلام وانا اقول كلا . اقول كلا لان الدراسه على هذا النمط لا تدفع عارا . ولا تنفع جارا . ولا تذكى نارا

الشبان ما كسبوا اخلاق دينهم ولا استعاضوا عنها باخلاق امة اخرى . اذا طالبناهم بذلك فانا لهم ظالمون. ما درسوا الدين

واذن لا مناص من احد امرين . اما ان يدرس الدين على نحو النهج الذي رسمناه. واما ان نقلع عن هذا وندرس شيئا اخر وبالجملة فاما دين . واما ان نترك هذه الدعوى

لئن كان الدين على هذه الشريطه فاحرينا ان نقول لا دين درسناه ليعظم الناظر دين التلاميذ. ليصل معهم. لتكن الصلاة في اوقاتها اشبه بالدروس في حفظها . وليصل معهم المدرسون وناظرهم فاذا شمخ الناظر بانفه عن الصلاة وتعالى من ساح اروبا عنها كما هي الحال. طاحت الامة شذر مذر وذهبت ادراج الرياح . واصبحت كالغراب قلد الحجلة فلا هو احسن مشيتها ولا رجع الى سابق عادته

لي مطلب ابسطه لك ايها الصديق خاتمه . راجيا توجيه همتكم العالية اليه . ذلك اني اود ان يكون هناك قسم اعلى يبقى فيه الطالب نحو ثلاث سنين . ليدرس فيه ما نقص من مواد الكمال العلمي وليتبحر في مواد اللغة العربية

وليس استبحار المرء في العربية وغوصه على جواهرها ودررها وافيا بفرض التعليم. والا كان الطالب قوالا لا فعالا. وما فائدة القول بلا مادة تحفظه. فليقرأ طرفا من الحكمة وليختر

مما ياتي موضوعاته وهو : تقسيم الحكمة الى اربعة اقسام

رياضية طبيعية . وجسمانية طبيعية . ونفسانية عقلية . وناموسية عامة ثم بيان ان هذا العالم مؤلف من نسب عجيبة كهيئة النسب الموسيقيه حتى انه ليدخل في الشعر ونغمات الطيور وسير السفن في البحار واثقالها وغير ذلك من العجائب. ثم تعديد اجناس الحرف والصنائع وايضاح طرائقها اجمالا ثم البحث عن الجسم وحقيقته وما يخصه من الاعراض . والكون . والفساد . وكيف يتكون من العناصر النبات والحيوان والانسان . والآثار العلوية . كحوادث الجو من النور والظلمة والحر والبرد . والتصاريف من الرياح والانهار وما يكون منها من الغيوم والضباب . والطل والندى . والامطار والرعود . والبروق والثلوج والبرد والهالات وقوس قزح . والشهب وذوات الاذناب واجناس النبات وانواعها . وكيفية سير النفس النامية فيها واختلاف انواعه من الاشكال والالوان والطعوم. والروائح وأوراقها وازهارها وثمارها وحبوبها وبذورها وصمغها ومائها وعروقها وقضبانها واصولها

وان اول مرتبة النبات متصل بآخر مرتبة المعادن .

وآخر مرتبتها متصلة باول مرتبة الحيوان وآخر مرتبة الحيوان متصلة باول مرتبة الانسان وفي الجسد وتركيبه وانه عالم صغير وبنية هيكله تشبه مدينة فاضله ونفسه تشبه الملك. وان انتصاب قامته أحسن أشكال الحيوان. في الحس والمحسوس. وبيان كيفية ادراك الحواس محسوساتها واتصالها بواسطة القوة الحاسة ومنها ينبعث قوى الحواس الظاهرة وغير ذلك من المباحث العجيبة النفيسة كيفية ارتباط النفس بها. معنى قول الحكماء ان الانسان عالم صغير. وفي كيفية نشر الانفس الجزئية في الاجساد البشرية والاجسام الطبيعية. بيان طاقة الانسان في المعارف والى أي حد مبلغه في العلوم والى أي غاية ينتهي. وفي ماهية الموت والحياة. وما الحكمة في وجودهما في الدنيا. والآلام الجسمانية والروحانية وعلة كراهة الحيوان الموت وما أسباب الآلام واللذات التي تنال النفوس بسبب الاجسام. اختلاف اللغات والعبارات وعللها ومبادئ المذاهب والديانات والاراء والاعتقادات واول نشأتها وانتقالها من قوم الى قوم والتنبيه على ان افعال النفس تقع بحسب ما في طبعها وغريزتها. وان قوة البحث عن الخفيات موجودة في جوهرها. أي في

جوهر النفس كالمادة والعلم كالصورة لها فهي علامة بالقوة والعلم صورة قائمة فيها

(المبادئ العقلية) على رأي حكماء الاسلام في البحث عن علة الاشياء وأسباب الكائنات الكليات والجزئيات. وان العالم كله كانسان كبير ذي نفس وروح. ثم العقل والمعقول. والعقل الهيولاني. والعقل بالقوة والعقل بالفعل والعقل المستفاد والعقل الفعال. ثم اختلاف القرون والامصار والزمان والدهور وبيان ترتيب العالم وظهوره وكيفية فنائه وحزابه. وماهية العشق ومحبة النفوس. وتشوقها الى الاتحاد وما حقيقته ومبدؤه وأقوال الحكماء فيه. كمية اجناس الحركات ومبادئها وغايتها وكيفية حركة الطبائع والعلل والمعلولات وكيفية رجوع اواخرها على اوائلها واوائلها على اواخرها

واجناسها. والعلوم الناموسية العامة والفلسفة والديانات. واختلافات العلماء وعللها والحق والباطل وما يصلح للجميع وما يصلح للخواص وما يصلح للعوام. وان كل رأي او عقيدة فانما هي الدواء والاشربة لمرض النفوس ثم تهذيب النفوس واصلاح الاخلاق وتطهير السرائر وبيان انتفاع النفوس بالاعتقاد بان لها

وجوداً بعد الموت والسعادة والمحبة والشفقة وتأليف القلوب والمقاصد في الحياة واعمالها والهداية ثم الضلال وخصال العقلاء وانواع السياسات ومراتب المسوسين .وصفات المديرين لها في العالم ثم مراتب الموجودات ونظام الكائنات وان آخرها منعطف على اولها

﴿ ملخص موجز ﴾

(١) مقدمة للرسالة وذكر ان مطالبها خمس (١)تعليم البنات (٢) كلام على الكتاب (٣) تعليم اللغة العربية في المدارس الابتدائية (٤) التعليم الاوسط (٥) التعليم الديني والاخلاق.ثم الخاتمة في تعليم الحكمة بمدرسة تخصص لذلك

(٢) تعليم البنات ثلاث درجات لترجع الى الفضيلة والدين والتدبير المنزلي ونحو ذلك ولا علاقة بين شهاداتهم وشهادات البنين . ولا تعلم لغة أجنبية الا في المدارس العالية لهن

(٣) يراعى في الكتاب الحرص على ايضاح وما شاع من الاضاليل التي تنشرها المغاربه والدجالون من كنز يفتح ونحاس يقلب ذهباً وغير ذلك

(٤) ان لدى العامة نحو ثمانية الاف كلمة كثير منها مجهول صحته عند المتعلمين ومن المخجل ان يعرف العامة نحو ثمانين كلمة في مادة الثوب والشجرة والحصاد كما اوضحتها في التفسير ولا يؤمن المتعلم بصحتها الا بعد الاين والنصب فليدرس ما دار بين العامة وهو عربي فصيح حتى يكون مادة للطالب عليها يعوّل ابدا وليتم بمعرفة المخلوقات المصرية من نبات وحيوان بشرح اوسع مما يعرفه العامة

(٥) ليدرس التلاميذ في المدارس الوسطى من علم الاخلاق طرفا مضافا له ١٥٠٠ آية من القرآن نصفها حض على العلوم والاخر حض على الاخلاق وليقرءوا الفلك وبعض علم الحكمة

(٦) لابد من فهم جميع القرآن للمستعدين فانه اهم من اشعار العرب لغة وخلقا وعلما ولا سيما حافظوه فلا ضير عليهم فيه

كتابخانه مجلس شورای ملی ١٣٠٢